



30.12.2015

باتريك موديانو

سلالة



رواية في السيرة الذاتية



ترجمتها عن الفرنسية

دانيال صالح

باتريك موديانو

سلالة

رواية في السيرة الذاتية

ترجمتها عن الفرنسية

دانيال صالح

مراجعة

كاظم جهاد

PQ2673.O3 A6412 2015

Modiano, Patrick, 1945-

[Un pedigree]

سلالة : رواية في السيرة الذاتية / تأليف باتريك موديانو ؛ ترجمة دانيال صالح ؛ مراجعة كاظم جهاد. - ط. 1. - أبو ظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2015.

151 ص. ؛ 11 × 18 سم.

ترجمة كتاب : Un pedigree

تدمك: 3-481-17-9948-978

1- القصص الفرنسية - القرن 21.

أ- صالح، دانيال. ب- جهاد، كاظم. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:

Patrick Modiano

Un pedigree

© Éditions GALLIMARD, Paris, 2005

لوحة الغلاف: «رأس كلب» لبيار أوغست رينوار Pierre-Auguste Renoir، 1870.



كلمة
KALIMA

www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: +971 2 6215 300 فاكس: +971 2 6433 127



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعتبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى، بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

سلافة

تقديم

استلهم باتريك موديانو حياته وحياة القريين منه في عدّة روايات موجزة ونافذة. روايات كتبها عاملاً بمبدأ صاغه في محاوره معه كالتالي: «لا تنفع السيرة الذاتية في الأدب ما لم تقم المخيلة بتهويتها». في هذا الكتاب، الصادر في 2005، قام بنوع من التنازل فوضع هذه السيرة الذاتية بشكلٍ رواية. ولكنّه هنا أيضاً خيّب انتظار بعض القراء، فتفادى الوقوع في فخ الاستجابة للمعايير السائدة في ما يُدعى كتابة الذات. وضع سيرة ذاتية قد تكون أوجز سيرة عرفها تاريخ الأدب وأكثفها. يعود إلى سيرة والديه الضائعين في مهتّب سنوات الحرب، وإلى مجتمع ما بعد الحرب الذي يقول إنّه كان يقابل فيه، «في الشوارع والمحطّات وسائر الأماكن، أناساً بلا وزن، مريين

أحياناً»، «لن نعرف أبداً مصائرهم، هذا في حالٍ ما إذا كان لديهم مصائر». وفي طباق مؤثر مع هذا البحر المتلاطم من البشر المراوحين في أماكنهم، عاجزين عن الحركة وعن ابتكار مساراتهم الخاصّة، يطبع موديانو كتابه بتسارع عجيب ويسبغ عليه وجازة مدهشة.

في عبارة أساسيّة تتوسّط هذا العمل كتب موديانو: «أكتب هذه الصفحات كمن يجرّر محضراً أو سيرة شخصيّة، بصفة توثيقية، ربّما للانتهاء من حياة لم تكن تخصّني». عبارة كاشفة عن فنّه، أو شعريّته. عامداً يراهن على الاقتضاب، وعلى تكثيف المادّة السردية. يؤثّر الإخبار اللّامح، ويُرّاكم تدوينات سريعة متلاحقة ينشأ من اجتماعها مشهد كبير وترتسم إطلالة عريضة على حقبة بكاملها. كتابة شذرية أو كاليديوسكوبية عمل من أجلها على إيصال العبارة المقتضبة التي عُرف بها كتاب سابقون، من أمثال روجيه نيميه وريمون كونو، إلى أقصى إمكاناتها. وفي الألوان ذاته مدّها بعاطفة معروفة بتكتمها، وبموسيقى خاصّة لا يخطئ في تمييزها قارئ خبير. هي كتابة محاضر أو تقارير على ما يقول، مع شيء من العطف

والحنوّ على كائنات الحقبة تلك، المدموغة بهشاشتها،
كائنات بلا أهمية، إلا فيما ندر، ضائعة في أغلبيتها العظمى،
وطوتها اليوم يد النسيان، لكنها بمرورها السريع وأفعالها
المتوالية أو عجزها عن الفعل تشكّل تربة عالمه الخاص.
يأخذها هو بعلاّتها وتخبّطها وأخطائها ويجعل منها
رموزاً لفترة تاريخيّة مفصليّة. يرفعها إلى مقام الشهود،
لا يحاكمها ولا يدينها، بل يعرضها كما هي، ومن خلالها
يعرض مساحات واسعة من البؤس الشامل، ومن البؤس
العريض الذي أمضى هو في كنفه طفولته وصباه، تلمع
فيها بين الحين والحين مبادرات طيبة وعلامات نبيل.

في هذا البحر الهائج والمستكين في آن، بحر مجتمع
الحرب العالمية الثانية وما بعدها المباشر، نال هو حصّته
من الحرمان الأليم. عرف إهمال والديه الماديّ والمعنويّ،
وصوّر ضياعهما بلا مهادنة وبلا كراهية. أب مهدّد بسبب
أصوله الإثنية في ظلّ الاحتلال النازيّ، يزيّف هويّته
ليبقى، ولا يكتفي بذلك، بل ينخرط في نشاط تجاريّ
مشبوه شكّل لابنه الكاتب منذ صباه مصدر تساؤلات
محصّة ولغزاً كبيراً. وأمّ ممثّلة مغمورة تعيش في انتظار أبديّ

لدور صغير تلعبه في فيلم أو مسرحية. في ظلّ هذا العوز
الشامل تنشأ بين الإلف والإلف أسوار من اللا تواصل
لا تفلح في اختراقها للحظاتٍ إلا صدقاتٌ نادرة وثمانية.
عبرَ هذا كلّه أعرب الفتى عن إرادة في صنع الذات تبدأ
برفض الانخراط في مسلكية إدارية أو وظيفية يريد والده
والمجتمع زجه إليها. يراهن على مساحة الضوء الآتية من
الأحلام، من إبحاره في المخيلة وصبواته الأدبية، حتى
يتحقّق التحرر الذاتيّ الكبير بفضل الكتابة. والعنصر
الأساس الذي يهّمه أكثر ما يهّمه (طفولته المتقاسمة مع
شقيقه الوحيد، ورحيل الشقيق المبكر عن مرضٍ) يحيطه
الكاتب بمساحة واسعة من الصمت، كأنها ليحميه من
آثار المجتمع السلبيّ الذي يشكّل جلّ محيطه.

بعرفانٍ كبيرٍ يصف في الصفحات الأخيرة جولاته
في شوارع باريس برفقة الكاتب والشاعر ريمون كونو،
الذي يدين هو له بالكثير، كاتباً أولاً (إذ عوالم كونو هي
في الغالب نزعات بباريس، وما يكون موديانو نفسه إن
لم يكن روائيّ باريس و«مساحها» الكبير؟)؛ ومسؤولاً في
النشر ثانياً، فهو من قبلَ بنشر عمل موديانو الأوّل لدى

غاليمار، واستقبل الكاتب الشاب في مكتبه وقال له: «إنك كاتب يا سيّدي».

ينبغي في الكتاب الحاليّ الانتباه إلى عمل الأمثال أو الأليغوريات. عالياً تنتصب هنا صورة الكلب. كلب هو من قبل حاضر في «حادث ليليّ» وروايات أخرى للكاتب، ومعروف أنّ الكلب لا يثير في الثقافة الأوروبية الاشمئزاز ذاته الذي يثيره في ثقافات أخرى. إلى ذلك، هو في أعمال موديانو كلب هائم، شبحيّ، بلا حبل أو سلسلة، أي بلا صاحب يعنى به، كلب تائه بلا مأوى وبلا عون، وفي هذا الكتاب هو بلا سلالة: «أنا كلب يريد الإيحاء بأنّه يتمتّع بسلالة»؛ «كلب بلا سلالة بقي متروكاً لحاله أكثر ممّا ينبغي». هذه الأليغوريا تلخص غرض الكتاب كلّه، بدءاً بالعنوان. عنوان يشكّل هو أيضاً لموديانو مناسبة للتعبير عن عرفان أدبيّ. فعن تصميم سمّي كتابه: *Un pedigree* («سلالة»)، مقتفياً أثر الكاتب البلجيكيّ، المعجب هو به، جورج سيمينون، الذي سمّي من قبل سيرته الذاتية: *Pedigree*. لا يفصل بين العنوانين سوى أداة التنكير، الحاضرة عند موديانو والغائبة عند سيمينون. صحيح أنّ

المؤدّي في الفرنسيّة هو ذاته (كما عندما تقول في العربيّة «كتابٌ» و«كتابٌ ما»)، إلّا أنّ فارقاً لطيفاً يرتسم بين العنوانين. فسيمينون يسرد تاريخ سلالة هي سلالته، أو محيط هو محيطه، أمّا المتكلّم في كتاب موديانو فيسعى إلى «الاندساس» في سلالة، سلالة ما، أيّة سلالة، عبثاً يبحث عن إحدائياتها ووجوهها ومآثرها. وهنا ينتصب المعنى الكبير الآخر المتضمّن في عبارته المفتاح المشار إليها أعلاه: «أكتب هذه الصفحات... ربّما للانتهاء من حياةٍ لم تكن تخصّني». وهذا أيضاً ما يفسّر سرعة إيقاع عمله ووجازة عباراته وعزوفه عن مراكمة التفاصيل، فهو يريد اختراق هذه السيرة المفكّكة وصولاً إلى ولادته الحقّ المتمثّلة في شروعه بالكتابة الأدبيّة. من هنا أيضاً اقتصار كتابه هذا على سيرة الطفولة والصّبا، وتوقّفه مع ظهور عمله الأدبيّ الأوّل. فمع الكتابة تبدأ الحياة، حياة ممكنة، وتوقّف السيرة، لأنّ سيرة الكاتب الحقيقيّة هي عمله.

أمثولة أخرى بعيدة الدلالة نلقاها في تلك المسرحية المهلهلة التي يجبر الفقرُ أمّ الراوية-الكاتب على التمثيل فيها ذات يوم. مسرحيّة يقدّمها مؤلّفها الموسر لأصحابه

وحدهم، ويستأجر من أجلها قاعة مسرح ويشغل مخرجاً وممثلين، ويحظر على النقاد مشاهدتها. وإذا بها تقف في تهافتها أمثلة عن المهزلة المبكية التي يعيشها أغلب أشخاص هذه السيرة العابرين. وهو ما أشار إليه موديانو نفسه في محاوره معه نُشرت بمناسبة ظهور هذا الكتاب في موقع غاليلار الإلكتروني، يقول فيها: «أجل، يخامرنا الانطباع في أننا نرى أمامنا فرقة ممثلين بلا موهبة غالباً ما يؤدون أدوارهم بنشاز. لكن لسوء الحظ لا أحسب أنهم يستمدون من ذلك أية متعة. فهم من أولئك الناس الذين يموتون دون أن يكونوا عرفوا عن أنفسهم أدنى حقيقة... ومن هنا فتلك المسرحية لها دلالة كبيرة في هذا الصدد».

يبقى أن نشير إلى كتابة موديانو التي شاء لها هنا أن تكون تقريرية أو مقتضبة، واستبعد فيها عمل المجاز والشعر («لست موهوباً في ابتكار الاستعارات»). كتابة غالباً ما تقوم على عبارات برقية، بلا روابط، مقذوف بها كأنها على عجل. ومع أنّ الإنشاء العربيّ يجبّد الربط بين العبارات، لم تُكثّر هذه الترجمة من الروابط، بل حافظت، ما أمكن ذلك، على وتائر الجمل، التي تمنح التفكك

الظاهريّ وانعدام الترابط المنطقيّ والنحويّ مكاناً معتبراً
في لعبتها الأثيرة.

كاظم جهاد

باريس، أواسط مارس 2015

ولدتُ في 30 يوليو 1945، في بولوني بيانكور، الرقم 11 ممّر مارغوريت، لأب يهوديّ وأمّ فلامنديّة تعارفا في باريس في ظلّ الاحتلال. أكتب «يهوديّ» وأنا أجهل ما كانت هذه الكلمة تعنيه حقّاً لوالدي، ولأنّها كانت مدرجة في ذلك الوقت على بطاقات الهوية. إنّ مراحل الاضطرابات الكبرى غالباً ما تولّد لقاءات غير مضمونة النتائج، بحيث أنني لم أشعر يوماً بنفسني ابناً شرعيّاً، لا ولا وريثاً.

ولدت أمّي في العام 1918 في أنتفيربن⁽¹⁾. قضت طفولتها في أحد أحياء ضواحي هذه المدينة، بين كيل

(1) Antwerpen أو Anvers بالفرنسيّة، مدينة في المنطقة الفلامنديّة من بلجيكا. (حواشي الكتاب وضعتها المترجمة).

وهوبوكن. كان والدها عاملاً ثم مساعد مسّاح. جدّها
لجهة والدتها، لويس بوغيرتس، كان عاملاً في أحواض
الميناء. اتّخذ أنموذجاً لتمثال عامل الأحواض الذي
أنجزه كونستانتان مونييه والذي يمكن رؤيته أمام قصر
بلدية أنتفيرين. ولقد احتفظتُ بدفتر أجوره للعام 1913،
الذي كان يدوّن عليه أسماء كلّ البواخر التي يفرغها:
«ميشيغان»، «إليزابيثفيل»، «سانتا آنا»... وقد قضى أثناء
عمله في حوالى الخامسة والستين من عمره، إثر سقوطه.
كانت والدتي فتاة حين انتسبت إلى حركة «الصقور
الحمراء»⁽¹⁾. عملت في شركة الغاز. وفي المساء، كانت
تتابع دروساً في الفنون المسرحيّة. وفي 1938، وظّفها
المخرج السينمائيّ والمنتج جان فاندرهايدن لتمثّل في أفلامه
«الكوميديّة» الفلامنديّة. أربعة أفلام من 1938 إلى 1941.
رقصت في مسرحيات غنائيّة في أنتفيرين وبروكسل، وبين
الراقصات والفنّانات، كان هناك العديد من اللاجئيين
القادمين من ألمانيا. في أنتفيرين، تقاسمت منزلاً صغيراً في

(1) حركة للشبيبة في بلجيكا كانت تتولّى استقبال الشبان وتنظم لهم أنشطة
متنوّعة من ألعاب وغناء ورقص فولكلوريّ وأشغال يدويّة وفنيّة.

شارع هورنشترات مع اثنين من أصدقائها أحدهما راقص يدعى يوبي فان آلن والآخر ليون ليمينز الذي كان نوعاً من السكرتير لمثليّ ثريّ هو البارون جان ل. كان يزوّده بالفتيان، وقُتل في عمليّة قصف في أوستنده في مايو 1940. أقرب أصدقائها كان مصمّم ديكور شاباً يدعى لون لاندوا، عادت والتقت به في بروكسل عام 1942 وعلى ملابسه إشارة النجمة الصفراء.

أحاول في غياب أيّ معالم مرجعيّة أخرى، أن أتبع التسلسل الزمنيّ. في العام 1940، بعد احتلال بلجيكا، كانت تقييم في بروكسل. كانت مخطوبة لشاب يدعى جورج نيلز كان يدير في العشرين من العمر فندقاً يدعى «كانتبري». وكان ضباط جهاز الدعاية والرقابة الألماني⁽¹⁾ صادروا قسماً من مطعم ذلك الفندق. كانت والدتي تقييم في «كانتبري» وتلاقي فيه أشخاصاً من مختلف الأنواع. لا أعرف شيئاً عن هؤلاء القوم. كانت تعمل في الإذاعة، في برامج فلامنديّة. وُظفّت في مسرح غنت. وفي يونيو 1941، شاركت في جولة على مرافئ ضفاف المحيط الأطلسي

(1) Propagande Staffel.

ونهر المانش لتقديم عروض أمام العمّال الفلامنديين من منظمة توت⁽¹⁾، وإلى الشمال، في هازبروك، أمام الطيارين الألمان.

كانت فتاة جميلة، جافة القلب. أهداها خطيبها كلباً من صنف تشو تشو، لكنّها لم تكن تعني به بل تعهد به إلى أشخاص مختلفين، مثلما فعلت بي لاحقاً. ولقد انتحر الكلب بأن رمى بنفسه من النافذة. يظهر ذلك الكلب في صورتين أو ثلاث صور، ولا بدّ لي من الإقرار بأنّ له تأثيراً عميقاً في نفسي وأنا أشعر بأنني أقرب ما أكون إليه.

لم يشأ والدا جورج نيلز، وهما ثريان من أصحاب الفنادق في بروكسل، أن تتزوّج ابنتهما. قرّرت مغادرة بلجيكا. كان الألمان يعتزمون إرسالها إلى مدرسة للسبينا في برلين، غير أنّ ضابطاً شاباً من جهاز الدعاية والرقابة عرفته في فندق «كانتربري» أنقذها من هذا المأزق بإرسالها إلى باريس، إلى شركة «كونتيننتال» للإنتاج بإدارة ألفريد غريفن.

(1) منظمة توت Todt كانت مجموعة هندسة مدنيّة وعسكريّة ألمانيّة إبان الرايخ الثالث، تحمل اسم مؤسسها فريتس توت.

وصلت إلى باريس في يونيو 1945. أخضعها غريفن لاختبار في استديوهات بيانكور، لكن النتيجة لم تكن مقنعة. عملت في قسم الدبلجة في «كونتيننتال»، فكانت تكتب الترجمة الهولندية للأفلام الفرنسية التي تنتجها الشركة. وجمعتها علاقة صداقة بأوريل بيشف، أحد مساعدي غريفن.

في باريس، أقامت في غرفة في الرقم 15 من رصيف⁽¹⁾ كونتي، في شقة كان يستأجرها بائع تحف قديمة من بروكسل وصديقه جان دو ب. الذي أتصوره فتى، في قصر ضائع في أقاصي بواتو مع والده وشقيقتين، يكتب سرّاً رسائل متقدمة إلى كوكتو. التقت والدي عن طريق جان دو ب. بشاب ألماني هو كلاوس فالنتير، كان متلطياً في وظيفة سهلة يزاوها في جهاز إداري. كان يسكن مشغلاً على رصيف فولتير ويطلع في ساعات فراغه آخر روايات إيفلين واه⁽²⁾. وأرسل لاحقاً إلى الجبهة الروسية حيث قُتل. ومن الزوّار الآخرين في شقة رصيف كونتي: شاب

(1) تُطلق تسمية «رصيف» quai على الشوارع المطلّة على نهر، وهي هنا شوارع باريس الواقعة على نهر السين.

(2) Evelyn Waugh.

روسيّ، جورج اسماعيلوف، كان مصاباً بالسلّ غير أنّه كان يخرج على الدوام بلا معطف في شتاءات الاحتلال القارسة. ويونانيّ يدعى خريستوس بيلوس، فاتته آخر باخرة أبحرت إلى أميركا حيث كان يفترض أن ينضمّ إلى صديق له. وكذلك فتاة بعمرها هي جنيفيف فودوايه. لم يبق من جميع هؤلاء سوى أسمائهم. أوّل عائلة فرنسيّة وبورجوازيّة دُعيت والدتي لزيارتها هي عائلة جنيفيف فودوايه ووالدها جان لوي فودوايه. عرّفت جنيفيف فودوايه والدتي على آرليتّي⁽¹⁾ التي كانت تسكن في رصيف كونتي، في المنزل المجاور للرقم 15. وضعت آرليتّي والدتي تحت جناحها.

اعذروني على كلّ هذه الأسماء، وجميع الأسماء الأخرى التي ستلي. فأنا كلب يتظاهر بأنّ له سلالة. لم يكن والداي مرتبطين بأيّ بيئة محدّدة بشكل واضح. كانا متقلّبين غامضين، حياتهما مضطربة، حتّى أنّي أجدني مضطرباً للبحث جاهداً عن بعض البصمات، بعض المعالم وسط هذه الرمال المتحرّكة، كمن يجاهد للملء بطاقة أحوال

(1) Arletty (1898-1992) ممثلة ومغنيّة فرنسيّة شهيرة.

شخصية أو استمارة إدارية بأحرف نصف محوّة.
ولد والدي عام 1912 في باريس، في ساحة بيتريل،
عند أطراف الدائرتين التاسعة والعاشره. كان والده
يتحدّر من تيسالونيكى باليونان، من عائلة يهودية أصلها
من توسكانا استقرّت في الإمبراطورية العثمانية. كان له
أبناء عموم في لندن والإسكندرية وميلانو وبودابست.
أربعة من أبناء عموم والدي، كارلو وغراتسيا وجاكومو
وزوجته ماري، قتلتهم عناصر القوّات الخاصّة النازية
في أرونا، على ضفاف بحيرة ماجيورى، في سبتمبر
1943. غادر جدّي تيسالونيكى في طفولته للانتقال إلى
الإسكندرية. لكنّه بعد بضع سنوات، غادر إلى فنزويلا.
أعتقد أنّه قطع الصلات مع جذوره وعائلته. اهتمّ بتجارة
اللؤلؤ في جزيرة مارغاريتا، ثمّ تولّى إدارة حانوت في
كراكاس. بعد فنزويلا، استقرّ في باريس عام 1903. فتح
محلّ تحف قديمة في الرقم 5 من شارع شاتودان، كان
يبيع فيه تحفاً فنيّة من الصين واليابان. كان يحمل جواز
سفر إسبانياً وظلّ حتّى وفاته مسجلاً في قنصليّة إسبانيا
في باريس، في حين كان أجداده برعاية قنصليات فرنسا

وإنكلترا ثم النمسا، بصفتهم «مواطنين من توسكانا». ولقد احتفظت بعدد من جوازات سفره، أحدها كان صادراً عن القنصلية الإسبانية في الإسكندرية. وثمة إفادة حُررت له في كراكاس عام 1894، تؤكد عضويته في جمعية الرفق بالحيوان. أما جدتي فقد ولدت في بادو كاليه. كان والدها يسكن عام 1916 في إحدى ضواحي نوتنغهام. لكنها اتخذت بعد زواجها الجنسية الإسبانية.

فقد والدي أباه في سنّ الرابعة. طفولته قضها في الدائرة العاشرة من باريس، حيّ هوتفيل. درس في مدرسة شابتال الابتدائية حيث كان تلميذاً داخلياً، حتى أيام السبت والأحد، على ما كان يقول لي. وكانت ترده في مهجعه أنغام العيد الشعبي على الشريط الفاصل في وسط جادة باتينيول. لم ينجح في امتحانات البكالوريا. كان في مراهقته وشبابه متروكاً لأمره بلا رعاية. ومنذ سنّ السادسة عشرة كان يرتاد مع أصدقائه فندق بوهي لافاييت وحنات شارع فوبور مونمارتر، مثل «لو كاديه» و«لونا بارك». كان يدعى ألبرتو، لكنّه يعرف باسم ألدو. في الثامنة عشرة، تعاطى تهريب البنزين، متجاوزاً خلسةً

مراكز دفع الضرائب في باريس. في التاسعة عشرة، توّسل إلى مدير في بنك سان فال أن يدعمه في عمليات «مالية»، معرباً عن قدرة على الإقناع جعلت الأخير يمنحه ثقته. غير أنّ القضية أخفقت إذ كان والدي لا يزال قاصراً، وتدخل القضاء. في الرابعة والعشرين، استأجر غرفة في الرقم 33 من جادة مونتاني، وحسب بعض الوثائق التي احتفظت بها، كان يزور لندن بشكل منتظم للمساهمة في إنشاء شركة أطلق عليها اسم «برافيسكو ليميتد». توفيت والدته عام 1937 في بيت ضيافة في شارع روكيين، كان نزل فيه لبعض الوقت مع شقيقه رالف. ثم شغل غرفة في فندق تيرمينوس، قرب محطة سان لازار للقطارات، غادرها بدون أن يدفع بدل الإقامة المترتب عليه. وقبل اندلاع الحرب بقليل، تولّى إدارة محلّ للجوارب والعطور في الرقم 71 من جادة ماليرب. تفيد المعلومات أنّه أقام في تلك الفترة في شارع فريديريك باستيا (الدائرة الثامنة).

واندلعت الحرب في حين لم يكن أرسى لنفسه أيّ أسس متينة، وكان منذ ذلك الحين يوارب ويتحايل لكسب عيشه. في 1940، كان بريده يرسل له إلى فندق فيكتور

إيمانويل الثالث، 24 شارع بونتيو. وفي رسالة إلى شقيقه رالف بعث بها عام 1940 من أنغوليم حيث تمّ تجنيده في فرقة مشاة، جاء على ذكر ثريًا أودعاها في محلّ رهون. وفي رسالة أخرى، طلب أن يرسلوا له إلى أنغوليم مجلّة «كورييه ديه بترول»⁽¹⁾. اهتمّ بين 1937 و1939 بـ «مسائل» تتعلّق بالنفط مع شخص يدعى أنريكيث: شركة روياليو للنفط الروماني.

باغته هزيمة يونيو 1940 في ثكنة أنغوليم. لم يتمّ اقتياده مع جحافل الأسرى، إذ لم يصل الألمان إلى أنغوليم إلّا بعد توقيع الهدنة. فليجأ إلى سابل دولون حيث مكث حتّى سبتمبر. هناك التقى من جديد بصديقه هنري لاغروا وصديقتين لهما، فتاة تدعى سوزان وجيزيل هولريش التي كانت راقصة في حانة تاباران.

عند عودته إلى باريس، لم يتسجّل بصفته يهوديًا. سكن مع شقيقه رالف عند صديقة الأخير، فتاة من موريشيوس تحمل جواز سفر إنكليزيًا. كانت الشقة في

(1) *Courrier des pétroles*

الرقم 5 شارع سوسيه بالقرب من مقرّ الغستابو⁽¹⁾. كانت الفتاة من موريشيوس ملزمة بالحضور كلّ أسبوع إلى مركز الشرطة، بسبب جواز سفرها الإنكليزيّ. وأودعت السجن عدّة أشهر في بيزانسون وفيتيل لكونها «إنكليزيّة». وكان لوالدي صديقة تدعى هيلاهـ، يهوديّة ألمانيّة كانت في برلين خطيبة ببلي ويلدر⁽²⁾. اعتُقلا ذات مساء من فبراير 1942 في مطعم في شارع مارينيان، خلال حملة كشف على الهويّات، في شهرٍ شهد تكثيف المداهمات بسبب المرسوم الصادر حديثاً يومذاك، والذي حظّر على اليهود التواجد في الشارع والأماكن العامّة بعد الثامنة مساءً. لم يكن والدي وصديقه يحملان أيّ أوراق ثبوتية. صعدا في حافلة لنقل الموقوفين واقتادهما مفتشون «للتحقّق» منهما إلى شارع غريقول، حيث مثلا أمام مفتش يدعى شفييلان. ترتّب على والدي الإفصاح عن هويّته. فصله

(1) الغستابو: مختصر اسم الشرطة السياسية للرايخ الثالث، وقد شمل نشاطه المناطق التي احتلتها ألمانيا النازية.

(2) Billy Wilder (1906–2002) مخرج أميركيّ من أصل نمساوي، كان يقيم في برلين قبل أن ينتقل مع صعود الحزب النازي إلى باريس ثم إلى الولايات المتّحدة.

الشرطيون عن صديقتة، وتمكّن من الفرار فيما كانوا على وشك نقله إلى النظارة، مغتماً انطفاء ساعة توقيت الضوء. أُطلق سراح هيلاه. في اليوم التالي من النظارة، إثر تدخل أحد أصدقاء والدي على الأرجح. ترى من يكون؟ غالباً ما راودني هذا السؤال. بعد هروبه، اختبأ والدي تحت أدراج مبنى في شارع ماتوران، جاهداً لعدم لفت انتباه الناطور. قضى الليل هناك بسبب حظر التجول. وفي الصباح، عاد إلى الرقم 5 شارع سوسيه. ثم لجأ مع صديقتة من موريشوس وشقيقه رالف إلى فندق، فندق آليسون في بروتوي، وكانت مديرته والدة أحد أصدقائهم. لاحقاً، سكن مع هيلاه. في شقة مفروشة في ساحة فيلاريه دو جوايوز وفي فندق «أومارونيه» في شارع شازيل.

الأشخاص الذين تمكّنت من التعرّف إلى أسمائهم من بين كلّ الذين كان يعاشرهم في تلك الفترة هم هنري لاغروا، ساشا غوردين، فريدي ماك إيفوي - وهو أسترالي بطل في رياضة الزلاجات الجماعية وسائق سيارات سباق تقاسم معه بعد الحرب مباشرة «مكتباً» على الشانزليزيه لم أتمكّن من اكتشاف اسمه التجاري -، وشخص يدعى

جان كوبورينديه (189 شارع لا بومب)، وغيزا بيلمون، وتودي فيرنر (كانت تعرف أيضاً بـ «السيدة ساهوك») وصديقتها هيسيان (ليزلوت)، وكيسا كوبرين، وهي روسية، ابنة الكاتب كوبرين. وقد مثلت في بعض الأفلام وفي مسرحية لروجيه فيتراك بعنوان «آنسات عرض البحر». أمّا فلوري فرانكن الملقبة ناردوس والتي كان والدي يناديها «فلو»، فكانت ابنة رسّام هولنديّ قضت طفولتها ومرافقتها في تونس. ثمّ قدمت إلى باريس وكانت تتردّد إلى حارة مونبرناس. في 1938، كانت ضالعة في حادثة أدّت إلى إحالتها على محكمة الجُنْح، وفي 1940 تزوّجت الممثل الياباني سيسوي هايكاوا. خلال الاحتلال، كانت على ارتباط بالممثلة التي كانت بطلة فيلم «لاتالانت»، ديتا بارلو، وعشيقها الدكتور فوكس، أحد قادة مكتب «أوتو»⁽¹⁾، أكبر مكاتب الشراء في السوق السوداء، في 6 شارع أدولف إيفون (الدائرة السادسة عشرة).

(1) نشطت إبان الاحتلال الألماني وبتشجيع منه أعمال السوق السوداء، وكان مكتب أوتو أهمّ المكاتب التي كانت تشتري مختلف أنواع البضائع لحساب الألمان، وتعرض في المقابل على الفرنسيين القادرين على دفع الثمن المنتجات غير المتوافرة في السوق العادية.

ذلك هو نوعاً ما العالم الذي كان والدي يعيش فيه. هل هو عالم من الانحلال؟ عالم من اللصوصية على مستوى عالٍ؟ سأذكر كذلك، قبل أن تضيع في ليل النسيان البارد، روسية أخرى كانت صديقته في تلك الفترة، واسمها غالينا أورلوف، أو «غاي» كما كان أصدقاءها ينادونها. هاجرت إلى الولايات المتحدة في سنّ صغيرة جداً. رقصت في العشرين من عمرها في استعراض موسيقيّ في فلوريدا والتقت فيه برجل أسمر قصير القامة عاطفيّ للغاية ولبق للغاية أصبحت عشيقته: كان يدعى لافي لوتشيانو⁽¹⁾. ولدى عودتها إلى باريس، عملت عارضة أزياء وتزوّجت للحصول على الجنسية الفرنسيّة. كانت تعيش في بدايات الاحتلال مع تشيليّ يدعى بيدرو إيزاغيرّه، كان «سكرتير البعثة الدبلوماسية» لبلاده، ثمّ وحدها في فندق شاتوبريان، في شارع السيرك، حيث كان والدي يزورها مراراً. أهدتني بعد أشهر من ولادتي «دبّوباً» محشوّاً احتفظت به لوقت طويل كتعويذة، وكأنّه الذكرى

(1) Lucky Luciano أحد أهمّ رجال المافيا في الولايات المتحدة وأشرسهم، متحدّر من صقلية ويعتبر «أبا» الجريمة المنظمة الحديثة.

الوحيدة المتبقية لي من والدة اختفت. وقد انتحرت في 12 فبراير 1948 في الرابعة والثلاثين من عمرها، ودُفنت في سانت جنيفاف دي بوا.

كلّما مضيت في جرد قائمة الأسماء هذه وناديت على الحاضرين في ثكنة مهجورة، شعرت برأسي يدور وأنفاسي تنقطع. عجيب كان ذلك القوم. وعجيب ذلك الزمن، زمن غامض ضبابي. التقى والداي في تلك الحقبة، بين هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يشبهونهما. فراشتان تائهتان طائشتان في وسط مدينة بلا بصر. *Die Stadt ohne Blick*⁽¹⁾.

لكنني لا يسعني شيء، فهذه هي التربة - أوريها كومة الزبل - التي انبثقت منها. والفتات الذي جمعته عن حياتهم، استقيت معظمه من والدي. فاتتها تفاصيل كثيرة عن والدي، عن العالم المشبوه، عالم السرية والسوق السوداء، الذي كان منغمساً فيه بحكم الواقع. بقيت جاهلة لكل شيء تقريباً. وهو رحل حاملاً أسرارته معه.

(1) «المدينة التي هي بلا بصر» (حرفياً: «المدينة التي هي بلا نظرة»)، تسمية أطلقها النازيون على باريس لفرط ما كانوا يلاحظون لدى أهاليها من عداء تجاههم ومن اكتتاب بياعث من الاحتلال. وضع المؤلف العبارة بالفرنسية ثم بالألمانية.

تعارفًا مساء يوم من أكتوبر 1942 عند تودي فيرنر المعروفة بـ «السيدة ساهوك»، في الرقم 28 شارع شيفر، الدائرة السادسة عشرة. كان والدي يستخدم بطاقة هوية باسم صديقه هنري لاغروا. في طفولتي، بقي اسم «هنري لاغروا» معلقاً منذ الاحتلال على الباب المزجج لمقصورة الناطور، بين قائمة سكان الرقم 15 من رصيف كونتي، مقابل عبارة «الطابق الرابع». سألت الناطور من هو «هنري لاغروا» ذاك. أجابني: والدك. أذهلتني تلك الهوية المزدوجة. علمت بعد وقت طويل أنه استخدم في تلك المرحلة أسماء أخرى كانت لا تزال تعيد صورته إلى ذاكرة البعض، بعد وقت على انتهاء الحرب. لكنّ الأسماء في نهاية المطاف تنفصل عن البشر المساكين الذين كانوا يحملونها، لتومض في مخيلتنا مثل نجوم بعيدة. عرّفت والدتي والدي على جان دوب. وأصدقائه. وجدوا أنّ له «مظهراً غريباً، مثل أميركيّ جنوبيّ» ونصحوا والدتي برفق بـ «لزوم الحذر». نقلت هذا الكلام لوالدي الذي أجابها بمزاحاً أنّه في المرّة المقبلة سيكون مظهره «أكثر غرابة» وأنّه «سيفزعهم أكثر».

لم يكن أميركياً جنوبياً، لكنّه بغياب صفة شرعية لوجوده، كان يعتاش من السوق السوداء. كانت والدتي تأتي لاصطحابه من أحد تلك الحجرات المرية التي يمكن الوصول إليها عبر مصاعد كثيرة موزّعة على طول أروقة مجمع متاجر الليدو المكسوّة بالقناطر. كان هناك على الدوام برفقة عدّة أشخاص أجهل أسماءهم. وكان على اتصال بصورة خاصّة مع «مكتب مشتريات» في الرقم 53 من جادة هوش، يشغله شقيقان أرمنيّان عرفهما قبل الحرب: ألكسندر وإيفان س. كان يسلمهما من جملة البضائع شاحنات كاملة من محامل الكريات المنتهية صلاحيتها القادمة من مخزونات قديمة لشركة «إس كا إف»، تبقى مكدّسة في أكوام غير قابلة للاستخدام، يتأكلها الصدأ في أحواض سانت أوان. صادفت أثناء أبحاثي العشوائية أسماء بعض الأفراد الذين كانوا يعملون في الرقم 53 من جادة هوش: البارون فولف، ودانتي فانوتشي، والدكتور بات، و«ألبرتو»، وتساءلت إن لم تكن تلك بكلّ بساطة أسماء مستعارة كان والدي يستخدمها. في مكتب شراء البضائع هذا على جادة هوش التقى بشخص يدعى أندريه

غاييسون، غالباً ما كان يكلم والدتي عنه، وهو صاحب المكتب. وقد اطلعت على قائمة بعناصر من الأجهزة الخاصة الألمانية تعود إلى العام 1945، تتضمن حاشية بشأن ذلك الرجل: غاييسون (أندريه). جنسية إيطالية، مواليد 1907. تاجر. جواز السفر رقم 13755 أُصدر في باريس في 18 / 11 / 42 وأدرج فيه على أنه رجل أعمال تونسي. شريك منذ 1940 لريشير (مكتب شراء البضائع رقم 53 جادة هوش). في 1942 كان في سان سيباستيان مندوباً لريشير. في أبريل 1944، كان يعمل بإمرة شخص يدعى رادوس من جهاز الأمن الألماني، فكان يتنقل غالباً بين هنداي⁽¹⁾ وباريس. في أغسطس 1944 أفيد عنه على أنه ينتمي إلى الشعبة السادسة من جهاز الأمن في مدريد بإمرة مارتن مايوالد. العنوان: شارع خورخي خوان 17، مدريد (رقم الهاتف: 222, 50).

الأشخاص الآخرون الذين كان والدي على علاقة معهم أثناء الاحتلال، أو على الأقل الذين علمت بهم:

(1) Hendaye بلدة فرنسية في مقاطعة البيرنيه الأطلسية على الحدود مع إسبانيا.

مصرفي إيطاليّ، جورج جورجيني شيف، وصديقه سيمون التي تزوّجت لاحقاً صاحب المولان روج⁽¹⁾، بيار فوكريه. أقام جورجيني شيف مكاتبه في الرقم 4 شارع بنتيفر. اشترى والذي منه الماسة وردية ضخمة، «صليب الجنوب»، حاول إعادة بيعها لاحقاً بعد الحرب، حين لم يعد يملك قرشاً. أوقف الألمان جورجيني شيف في سبتمبر 1943، إثر توقيع إيطاليا الهدنة⁽²⁾. وخلال الاحتلال، قدّم لوالديّ شخصاً يدعى الدكتور كارل غيرستتر، كان مستشاراً اقتصادياً لدى سفارة ألمانيا، وكان له صديقة يهودية تدعى سييل، وأصبح لاحقاً على ما يبدو شخصيّة «مهمّة» في برلين الشرقية بعد الحرب. وأنيه باديل: محام سابق، مدير مسرح «لوفيو كولومبييه» عام 1944. قام والذي بصفقات في السوق السوداء معه ومع زوج ابنته جورج فيكار. أرسل باديل لوالدي نسخة من مسرحيّة «الأبواب المقفلة» لسارتر⁽³⁾

(1) Moulin-Rouge كاباريه باريسيّ يشتهر بعروضه الراقصة ويعتبر من معالم باريس.

(2) الهدنة بين إيطاليا والقوات الحليفة، والتي نصّت على استسلام إيطاليا.

(3) *Huis clos* مسرحيّة للكاتب والفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر.

التي كان يعتزم تقديمها في مايو 1944 في مسرح «لو فيو كولومبييه» والتي كان عنوانها الأصلي «الآخرون⁽¹⁾». كانت تلك النسخة من «الآخرون» المطبوعة على الآلة الكاتبة لا تزال منسيّة في قعر خزانة في غرفتي بالطابق الخامس على رصيف كوندي، حين كنت في الخامسة عشرة. كان براديل يعتقد أنّ والدتي تحتفظ باتصالات مع الألمان، بسبب شركة كونتيننتال، وأنّه سيكون بوسعه بالتالي الاستحصال بأكثر سرعة بواسطتها على إذن الرقابة لتلك المسرحيّة.

ومن المحيطين بوالدي أيضاً: أندريه كاموان، بائع تحف أثرية، رصيف فولتير. ماريا تشيرنيشيف، فتاة من نبلاء روسيا، غير أنّها أقصيت من طبقتها، كان يتشارك معها في صفقات ضخمة في السوق السوداء، وفي صفقات أكثر تواضعاً مع شخص يدعى «السيد فوكيه». أمّا فوكيه ذلك، فكان له متجر في شارع رين، وكان يسكن بيتاً صغيراً في إحدى ضواحي باريس.

أغمض عينيّ، فيتراءى لي لوسيان ب. قادماً من

.Les Autres (1)

أقاصي الماضي بمشيته المتثاقلة. أعتقد أنّ مهنته كانت تقوم على التوسّط وتعريف الناس بعضهم على البعض الآخر. كان بديناً للغاية، وفي طفولتي، كلّما جلس على كرسيّ، كنت أخشى أن ينشقّ تحت وزنه. حين كانا شابين، هو ووالدي، كان لوسيان ب. عاشقاً لسيمون سيمون⁽¹⁾، وكان متيّباً بها يتبعها مثل كلب وفيّ سمين. وكان صديق سيلفيان كيمف، وهي مغامرة وبطلة في لعبة البلياردو أصبحت تحت الاحتلال المركيزة دابرانتييس وعشيقة أحد أعضاء جماعة شارع لوريستون⁽²⁾. إنهم أشخاص من المستحيل إطالة التوقّف عندهم. مجرد مسافرين مشبوهين يعبرون ردهات محطّات القطارات من غير أن أعرف يوماً وجهتهم، إن افترضنا أنّ لهم وجهة. ولا بدّ لاستكمال قائمة الأشباح هذه، من ذكر الشقيقين اللذين كنت أتساءل إن كانا توأمين: إيفان وألكسندر س. كان

(1) Simone Simon (1910-2005).

(2) مجموعة عرفت بـ «الغستابو الفرنسية» وهي تضمّ فرنسيين من أوساط الجريمة المنظّمة، عملت لحساب سلطات الاحتلال الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية، وكان مركزها في شارع لوريستون، في الدائرة السادسة عشرة من باريس.

لثاني صديقة تدعى إينكا، راقصة فنلندية. لا بدّ أنّها كانا من كبار أسياد السوق السوداء، إذ احتفلا إبان الاحتلال بجمعهما «أول مليار»، في شقّة من المبنى الضخم في الرقم 1 من جادة بول دومير، كان يسكنها إيفان س. عند تحرير فرنسا، فرّ الأخير إلى إسبانيا، على غرار أندريه غايسون. ماذا عن ألكسندر س.، ما الذي حلّ به؟ أتساءل بشأنه. لكن هل من الضروريّ فعلاً التساؤل؟ قلبي أنا يخفق لكل الذين كُتّنرى وجوههم على «اللافتة الحمراء»⁽¹⁾.

غادر جان دو ب. وبائع التحف الأثرية القادم من بروكسل الشقّة على رصيف كونتي في مطلع 1943، وانتقل والداي للإقامة فيها معاً. قبل أن أسأم نهائياً من كلّ ذلك ولا أعود أجد الشجاعة والجلد، أنقل بعض نتف حياتهما في تلك الفترة البعيدة، لكن مثلما عاشاها في فوضى الحاضر.

كانا يلجان أحياناً إلى آبي، إلى قصر بريو، مع هنري

(1) لافتة باللون الأحمر أعدتها أجهزة الدعاية النازية وعُلقت في 21 فبراير 1944 على جدران باريس وعدد من المدن الفرنسية الكبرى لإعلان إعدام 23 مقاوماً من المجموعة التي عُرفت بـ «شبكة مانوكيان» باسم زعيمها الأرمني الأصل ميساك مانوكيان.

لاغروا وصديقته دونيز. كان قصر بريو مهجوراً. أصحابه كانوا أميركيين أرغمتهم الحرب على مغادرة فرنسا وعهدوا إليهما بمفاتيحه. في الريف، كانت والدتي تركب مع لاغروا على درّاجته الناريّة من طراز بي اس إيه 500 سنتم مكعب. قضت مع والدي شهري يوليو وأغسطس 1943 في نزل يدعى «لوبوتي ريتز» في فارين سانت إيلير. انضمّ إليهما هناك جورجيني شيف، وسيمون، وغيرستتر وصديقته سييل. كانوا يمارسون السباحة في نهر المارن. وكان في عداد رواد ذلك النزل بعض اللصوص و«نساءهم»، وبينهم المدعوّ «ديدي» ورفيقته «السيدة ديدي». كان الرجال يغادرون في الصباح في سياراتهم لإتمام أعمال غامضة مريبة ويعودون في وقت متأخر جداً من باريس. في إحدى الليالي، سمع والداي شجاراً في الغرفة فوق غرفتهما. كانت المرأة تنعت رفيقها بـ «الشرطي القذر» وألقت من النافذة رزماً من الأوراق المائيّة، أخذة عليه جلب كلّ تلك النقود. شرطيون زائفون؟ أعوان للغستابو؟ لقد نجت تودي فيرنر المعروفة بـ «السيدة ساهوك» والتي تعارف والداي عندها، من حملة توقيفات

في مطلع 1943. أصيبت بجرح حين قفزت من إحدى نوافذ شقتها. وكان ساشا غوردين، أحد أقدم أصدقاء والدي، مطلوباً، كما تؤكد رسالة من مديرية الأحوال الشخصية في المفوضية العامة للشؤون اليهودية⁽¹⁾، موجّهة إلى مدير «شعبة تحقيق ومراقبة»: «6 أبريل 1944. سبق أن طلبت منكم بموجب الإخطار المدرج ذكره للمرجعية، القيام بشكل عاجل بتوقيف اليهودي غوردين ساشا لمخالفته قانون 2 يونيو 1941. على إثر هذا الإخطار، أبلغتموني بأنه غادر منزله بدون إعطاء عنوانه الجديد. غير أنه شوهد في الأيام الماضية يجول على درّاجة في شوارع باريس. أرجوكم بالتالي القيام بزيارة جديدة إلى منزله تنفيذاً لإخطاري الصادر في 25 يناير الماضي».

أذكر أنّ والدي جاء على ذكر تلك الفترة مرّة واحدة، حين كنّا معاً ذات مساء في جادة الشانزليزيه. أشار لي إلى طرف شارع مارينيان، حيث تمّ اعتقاله في فبراير 1942. وأخبرني عن عمليّة توقيف ثانية، في شتاء 1943، بعدما

(1) شرطة خاصّة مكلفة بتطبيق سياسة نظام فيشي ضدّ يهود فرنسا إبّان الاحتلال النازي.

وشى به «أحد». اقتيد حينها إلى نظارة السجن، حيث
توسّط «أحد» لإطلاق سراحه. في تلك الليلة، شعرت بأنّه
كان يودّ أن ييوح لي بأمر، غير أنّه لم يجد الكلمات لذلك.
اكتفى بالقول لي إنّ سيّارة نقل الموقوفين كانت تجول على
مراكز الشرطة قبل التوجّه إلى نظارة السجن. وفي إحدى
تلك المحطّات، صعدت في الحافلة فتاة جلست قبالة،
حاولتُ عبثاً بعد وقت طويل البحث عن أثرها، من غير
أن أعرف ما إذا كان ذلك المساء في عام 1942 أو 1943.

في ربيع 1944، تلقى والدي في الشقّة على رصيف
كونتي اتّصالات هاتفية من شخص مجهول. كان صوت
يخاطبه باسمه الحقيقيّ. في ما بعد ظهيرة أحد الأيام، دقّ
مفتّشان فرنسيّان باب الشقّة في غيابه وسألا عن «السيد
موديانو». أعلنت والدي لهما أنّها مجرد فتاة بلجيكية تعمل
في شركة كونتيننتال، وهي شركة ألمانية. وأنّها تستأجر
غرفة في تلك الشقّة من رجل يدعى هنري لاغروا، ولا
يمكنها إعطاؤهما أيّ معلومات. قالا إنّهما سوف يعودان.
غادر والدي رصيف كوندي هرباً منهما. أفترض أنّ الأمر
لم يعد في حينه يتعلّق بعناصر شرطة الشؤون اليهودية

بقيادة شفييلان⁽¹⁾، بل برجال شعبة التحقيق والمراقبة - كما حصل لساشا غوردين. أو رجال المفوض بيرميو⁽²⁾ من مديرية الشرطة. أردت فيما بعد أن أضع وجوهاً على أسماء جميع هؤلاء الأشخاص، لكنهم ظلوا على الدوام قابعين في الظل، تفوح منهم رائحة جلد متعفن.

قرّر والداي مغادرة باريس بأسرع من يمكن. كان لكريستوس بيلوس، اليوناني الذي التقت به والدي عند ب.، صديقة تعيش في بيت قرب شينون⁽³⁾. لجأ الثلاثة عندها. حملت والدي معها ملابسها الخاصة بالتزلج، في حال ما إذا اضطرّا إلى الفرار أبعد من ذلك. بقيا مختبئين في ذلك المنزل في تورين حتى التحرير، وبعدها عادا إلى باريس على درّاجتين، مع سيل القوات الأميركية.

في مطلع سبتمبر 1944، لم يشأ والدي العودة مباشرة إلى رصيف كونتي، خشية أن تلاحقه الشرطة من جديد،

(1) المفوض جاك شفييلان، مدير شرطة الشؤون اليهودية، من مسؤولي الشرطة الفرنسية الذين تعاونوا مع الاحتلال الألماني.

(2) المفوض شارل بيرميو، مسؤول جهاز الشؤون اليهودية التابع لمديرية الشرطة القضائية، مكلف اعتباراً من نوفمبر 1942 بتنفيذ المدهامات وعمليات توقيف اليهود. بموجب الإخطارات الألمانية.

(3) Chinon بلدة فرنسية تقع إلى جنوب غرب باريس، في مقاطعة تورين.

لكن هذه المرّة لمحاسبتة على نشاطاته الخارجة عن القانون في السوق السوداء. نزل والداي في فندق، عند زاوية جادة بروتوي وجادة دو كين، فندق «ألكسيون دو بروتوي» ذاك الذي سبق أن لجأ إليه والدي عام 1942. أرسل والدي أولاً إلى رصيف كونتي للاستكشاف، ليرى أيّ منحى تتخذه الأمور. استدعتها الشرطة وخضعت لاستجواب مطوّل. كانت أجنبيّة، وأرادوا منها أن تفصح لهم عن السبب الحقيقيّ لقدمها إلى باريس عام 1942 بحماية الألمان. شرحت لهم أنّها مخطوبة ليهوديّ تعيش معه منذ سنتين. لا شك أنّ من استجوبوها كانوا زملاء الشرطيّين اللذين أرادوا توقيف والدي باسمه الحقيقيّ قبل بضعة أشهر. أو ربّما كان هذان من بينهم. لا بدّ أنّهم كانوا الآن يبحثون عنه بأسمائه المستعارة، من غير أن يتمكنوا من التعرّف إليه.

أطلقوا سراح والدي. في المساء، تحت نوافذ غرفتهما في الفندق، كانت نساء يتنزّهن على طول الشريط الفاصل بين جانبي جادة بروتوي برفقة الجنود الأميركيّين، وكانت إحداهنّ تحاول أن تشرح لأميركيّ كم من الأشهر ظلّوا بانتظارهم. تعدّ على أصابعها بالإنكليزيّة: «واحد،

اثنان..». لكنّ الأميركيّ لا يفهم قصدها ويقلّدها، فيعدّ على أصابعه هو أيضاً: «واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة..». ويكملان إلى ما لا نهاية. بعد بضعة أسابيع، غادر والذي فندق «آلسيون دو بروتوي». لدى عودته إلى رصيف كونتي، علم أنّ «الميليشيا»⁽¹⁾ صادرت في يونيو سيّارته الفورد التي كان خبأها في مرآب في نويي، وأنّ جورج مانديل⁽²⁾ قُتل في تلك الفورد التي كان هيكلها يحمل آثار الرصاص والتي حجزها الشرطيّون لدواعي التحقيق.

(1) منظمة شبه عسكرية فرنسية شكّلتها حكومة فيشي عام 1943 لمطاردة المقاومين وكانت متعاونة مع الغستابو.

(2) Georges Mandel سياسي فرنسي معاد للنازية وللسياسات المؤيدة للألمان، اعتقل وقُتل بأمر من قائد شرطة حكومة فيشي.

في 2 أغسطس 1945، حضر والدي على درّاجة إلى بلدية بولوني بيانكور لإعلان ولادتي. أتصوّره عائداً عبر شوارع أوتوي المقفرة وأرصفتة النهر الصامتة في ذلك الصيف. ثم قرّر العيش في المكسيك. كان جوازا السفر جاهزين. في اللحظة الأخيرة، غير رأيه. كاد يغادر أوروبا بعد الحرب. وبعد ثلاثين عاماً، ذهب إلى سويسرا، البلد المحايد، ليموت هناك. في تلك الأثناء، تنقل كثيراً: إلى كندا، وغويانا، وأفريقيا الإستوائية، وكولومبيا... ما بحث عنه من غير أن يجده، كان الإللدورادو. وأتساءل إن لم تكن سنوات الاحتلال هي ما كان يهرب منه في الحقيقة. لم يفاتحني يوماً بالمشاعر التي كانت تخالجه في باريس خلال تلك الفترة. الخوف والإحساس الغريب بأنّه مطارد لأنهم

صتّفوه في فئة محدّدة من الطرائد، في حين لم يكن هو نفسه يعلم من هو بالضبط؟ لكن يجدر بنا ألا نتكلّم نيابة عن الآخرين، ولطالما شعرت بالإحراج لكسر مساحات الصمت، حتّى حين تكون أليمة.

1945. كان والداي لا يزالان يسكنان الرقم 15 من رصيف كونتي، في الطابقين الرابع والخامس. اعتباراً من العام 1947، استأجر والدي أيضاً الطابق الثالث. ازدهار نسبيّ وخاطف لم يدم، عرفه والدي حتّى 1947، قبل أن يدخل نهائياً مرحلة ما يعرف بالبوّس الذهبيّ. كان يزاول أعمالاً مع جورجيني شيف، ورجل يعرف بالسيد تيسييه كان مواطناً من كوستا ريكا، وبارون يدعى لوي دو لا روشيت. كان مقرّباً من ز.، شخص كان ضالعاً في «فضيحة النيذ»⁽¹⁾. قدم جدّي وجدّتي لجهة والدي من أنتفيربن إلى باريس للاهتمام بي. بقيت معها على الدوام، ولم أكن أفهم سوى اللغة الفلمنديّة. في 1947، ولد شقيقي رودي، في الخامس من أكتوبر. تابعت والدي منذ التحرير

(1) كانت «فضيحة النيذ» أكبر فضيحة سياسية في فترة ما بعد الحرب لما كشفت عن ضلوع شخصيات من داخل السلطة في ممارسات السوق السوداء.

دروساً في الفنّ المسرحيّ في معهد «لو فيو كولومبييه»... في 1946، مثلت في مسرح «لا ميشودير» حيث أدت دوراً صغيراً في مسرحيّة «بجانب شقراي»⁽¹⁾. وفي 1949، ظهرت بشكل عابر في فيلم «موعد يوليو»⁽²⁾.

في ذلك الصيف من العام 1949، في رأس أنتيب وعلى الساحل الباسكيّ، كانت صديقة «بلاي بوي» روسيّ الأصل، فلاديمير راشيفسكي، والمركيز أ.، وهو باسكيّ كان ينظم قصائد. هذا ما علمت به بعد وقت. بقينا أنا وشقيقي وحيدين لحوالي سنتين في بياريتز. كئنا سكن شقة صغيرة في كاسا مونتالفو، والمرأة التي كانت تهتمّ بنا كانت حارسة ذلك المنزل. لم أعد أذكر وجهها بشكل واضح.

في سبتمبر 1950، جرت عمادتنا في بياريتز، في كنيسة سان مارتان، دون أن يحضر أيّ من والدينا. وبحسب شهادة العماد، كان عزّابي رجلاً غامضاً يدعى «جان مينت»، لا أعرفه. عند بدء العام الدراسيّ الجديد في أكتوبر 1950، ذهبت الى المدرسة لأوّل مرّة، والتحقّت بمؤسّسة

(1) *Auprès de ma blonde* مسرحيّة لمارسيل أشار.

(2) *Rendez-vous de juillet* فيلم للمخرج جاك بيكر.

«سانت ماري» في بياريتز، في حيّ كاسا مونتالفو.
عند الخروج من الصفوف في ما بعد ظهيرة أحد الأيام،
لم يحضر أحد لاصطحابي. أردت العودة وحيداً، لكنّ
شاحنة صغيرة صدمتني وأنا أقطع الطريق. نقلني السائق
عند الراهبات اللواتي وضعن على وجهي قطعة شاش
مبلّلة بالأثير حتّى أنام. منذ ذلك الحين، وأنا حسّاس
للغاية إزاء رائحة الأثير. أكثر ممّا ينبغي. ظلّ للأثير ذلك
المفعول الغريب عليّ، يذكرني بمعاناة، لكنّه يمحوها على
الفور. الذاكرة والنسيان معاً.

عدنا إلى باريس عام 1951. ذات يوم أحد، قبل الظهر،
كنت في كواليس مسرح مونبرناس حيث كانت والدتي
تلعب دوراً صغيراً في مسرحيّة «عقدة فيلمون»⁽¹⁾. كانت
والدتي على المسرح. شعرت بالخوف. أخذت أبكي.
أعطتني سوزان فلون التي كانت تمثّل أيضاً في المسرحيّة،
بطاقة بريديّة حتّى أهدأ.

الشقة على رصيف كونتي. في الطابق الثالث، كنّا
نسمع في المساء أصداً أصوات وقهقهات في الغرفة

(1) *Le Complexe de Philémon* مسرحيّة لجان برنار لوك.

المجاورة لغرفتنا، حيث كانت والدتي تستقبل أصدقاءها من سان جرمان دي بريه. نادراً ما كنت أراها. لا أذكر أيّ بادرة منها توحى بحنان حقيقيّ أو رعاية. كنت أشعر على الدوام بقدر من الحذر والתיقّظ في حضورها. نوبات غضبها المباغته كانت تجفّلني، وبما أنّني كنت أذهب إلى صفوف التعليم الدينيّ، كنت أقدم صلاة من أجل أن يغفر الله لها. كان مكتب والدي في الطابق الرابع. غالباً ما كان يمكث فيه برفقة شخصين أو ثلاثة. كانوا يجلسون على الأرائك أو على مساند الكنبة. يتحادثون فيما بينهم. يجرون اتّصالات هاتفية الواحد تلو الآخر. ويتقاذفون الهاتف الواحد للآخر وكأنه كرة رغبي. بين الحين والآخر، كان والدي يوظف فتيات، طالبات من معهد الفنون الجميلة، للاهتمام بنا. كان يطلب منهنّ الردّ على الهاتف والقول إنّه «ليس موجوداً». كان يملي عليهنّ رسائل.

في مطلع 1952، عهدت والدتي بنا إلى صديقتها سوزان بوكورو التي كانت تسكن منزلاً مستقلاً في الرقم 38 من شارع الدكتور كورزين، في جوي أون جوزاس. التحقت بمدرسة جان دارك، في نهاية الشارع، ثمّ بالمدرسة

الرسميّة المحليّة. في العام 1952، شاركنا أنا وشقيقي في جوقة الترتيل خلال قدّاس منتصف الليل في كنيسة البلدة. قراءاتي الأولى: «آخر الموهيكتين»⁽¹⁾ الذي لم أفقه منه شيئاً، غير أنني أكملت قراءته حتّى النهاية. و«كتاب الأدغال»⁽²⁾. وقصص أندرسن التي صورتها أدريان سيغور. و«حكايات القطّ الجاثم»⁽³⁾.

كان هناك حركة متواصلة ذهاباً وإياباً لنساء غريبات في 38 شارع الدكتور كورزين، من بينهنّ زينا راشفسكي، سوزان بوليه المعروفة بلقب «فريدي»، مديرة «كارولز»، ملهى ليليّ في شارع بونتيو، وامرأة تدعى روز ماري كراويل، كانت تملك فندقاً في شارع فيو كولومبييه، وتقود سيّارة أميركيّة. كنّ يرتدين سترات وأحذية رجاليّة، وكانت فريدي تضع ربطة عنق. كنّا نلعب مع ابن شقيقة فريدي.

(1) *Le Dernier des Mohicans* رواية تاريخيّة للكاتب الأميركي جيمس فينيمور كوبر.

(2) *The Jungle book* أو بالفرنسيّة *Le Livre de la jungle* رواية للكاتب البريطاني راديارد كيبلينغ.

(3) *Contes du chat perché* مجموعة قصص للكاتب الفرنسي مارسيل إيميه.

كان والدي يزورنا من وقت لوقت برفقة أحد أصدقائه وامرأة شابة شقراء لطيفة تدعى ناتالي، كانت مضيضة طيران تعرّف إليها خلال إحدى رحلاته إلى برازافيل. كنّا نستمع إلى الراديو بعد ظهر الخميس لمتابعة برامج الأطفال. في الأيام الأخرى، كنت أستمع أحياناً إلى نشرة الأخبار. ينقل المذيع وقائع محاكمة مرتكبي مجزرة أورادور⁽¹⁾. وقع هاتين الكلمتين ما زال إلى اليوم يبتّ فيّ الرعب، كما في تلك الأيام حين لم أكن أفهم تماماً ما يجري. ذات مساء، خلال إحدى زياراته، كان والدي جالساً قبالي، في صالون البيت في شارع الدكتور كورزين، قرب المشريّة المستديرة. سألني عما أريد أن أصبح لاحقاً في الحياة. لم أدر ما أجيبه.

في فبراير 1953، جاء والدي ذات صباح وأخذنا أنا وأخي في السيّارة من المنزل المقفر، وأعادنا إلى باريس. علمت لاحقاً أنّ سوزان بوكرو أوقفت في قضايا سطو. بين جوي أون جوزاس وباريس، ينتصب سرّ تلك الضاحية

(1) مجزرة ارتكبتها فرقة تابعة للقوّات الخاصّة الألمانيّة في قرية أورادور سور غلان في 10 يونيو 1944، وأدّت إلى تدمير القرية وقتل جميع سكّانها.

التي لم تكن أصبحت ضاحيةً بعد. القصر المهدوم، وأمامه
المرج المكسوّ بالحشائش العالية، من حيث كُنّا نطلق طيّارة
ورق. غابة ممتز. والدولاب الكبير في مضخّات مارلي،
الذي كان يدور وسط قرقره شلال وطرأوة المياه المنسابة.
بقينا في باريس من 1953 إلى 1956 وكنت أذهب مع
شقيقي إلى المدرسة الرسميّة المحليّة في شارع بون دو
لودي. كنا نحضر أيضاً صفوف التعليم الديني في سان
جرمان دي بريه. كُنّا نلتقي كثيراً بالأب باشو الذي كان
كاهناً في سان جرمان دي بريه، ويسكن شقّة صغيرة في
شارع بونابرت. عثرت على رسالة كتبها لي الأب باشو
في تلك الفترة. «الاثنين 18 يوليو. أتصوّر أنّك تبني حتماً
قصوراً من رمل على شاطئ البحر... وحين يتصاعد المدّ،
لا يسعك سوى أن تهرب على وجه السرعة! كما حين
يدقّ الجرس معلناً نهاية الفرصة في ملعب مدرسة بون
دو لودي! أتعلم أنّ الطقس حارّ جداً في باريس؟ لحسن
الحظّ، تحصل بين الحين والآخر عواصف رعدية تضيئي
بعض البرودة إلى الجوّ. لو كانت دروس التعليم الدينيّ
لا تزال سارية، لما كنت انتهيت من توزيع أكواب شراب

النعناع من الإبريق الأبيض على جميع رفاقك. لا تنسَ عيد الخامس عشر من آب: بعد شهر يحين عيد انتقال السيّدة مريم العذراء. في ذلك اليوم، عليك أن تتناول⁽¹⁾ حتى تفرح قلب والدتك في السماء. ستكون راضية عن ابنها باتريك إن أنت أحسنت القيام بما يسرّها. تعلم جيداً أنّك يجب ألا تنسى في العطلة أن تحمد الله على كلّ الوقت الممتع الذي يهبك آياه. إلى اللقاء عزيزي باتريك. أبعث لك قبلات من القلب. الأب باشو». كانت صفوف التعليم الديني تجري في الطابق الأخير من مبنى متداعٍ في الرقم 4 من شارع لابايي - الذي يؤوي اليوم شققاً فخمة - وفي قاعة في ساحة فورستنبرغ تحوّلت إلى متجر فاخر. الوجوه تغيّرت. لم أعد أعرف حيّ طفولتي، وما كان جاك بريفير والأب باشو ليعرفاه هما أيضاً.

في الجانب الآخر من السّين، تنتشر ألغاز باحة اللوفر وساحتي الكاروسيل وحدائق التويلري حيث كنت أقضي ما بعد ظهائر طويلة مع شقيقي. الحجارة السوداء وأوراق أشجار الكستناء تحت الشمس. المسرح في الهواء

(1) إشارة إلى المناولة وهي تناول خبز القربان أو الخبزة المقدّسة في الكنيسة.

الطلق. تلة الأوراق اليابسة المتكدسة لصق الجدار الداعم للساحة، عند أسفل متحف «جو دو بوم»⁽¹⁾. وضعنا أنا وشقيقي أرقاماً للممرات. الحوض الفارغ. تمثال قايين وهابيل في إحدى ساحتي الكاروسيل اللتين أُزيلتا. وتمثال لافايت في الساحة الأخرى. الأسد البرونزي في حدائق الكاروسيل. الميزان الأخضر لصق الجدار المحاذي لدرب حافة النهر. خزف المراحيض تحت درب «فويان» والطرارة المنتشرة فيها. البساتنة. طين محرّك الجزّارة في صباح مشمس، على إحدى بقع العشب قرب الحوض. الساعة الضخمة بعقاربها المسّرة إلى الأبد، عند بوابة القصر الجنوبيّة. وعلامة الحديد الحامي الذي كوى كتف ميلايدي⁽²⁾. كئنا نضع أنا وأخي شجرات أنساب، فتواجهنا مشكلة إيجاد الرابط بين لويس التاسع وهنري الرابع. في الثامنة من عمري، شاهدت فيلماً كان له وقع شديد في

(1) Jeu de Paume متحف يقع في حدائق التويلري، مخصّص للفنّ المعاصر والتصوير الفوتوغرافي.

(2) Milady de Winter إحدى شخصيات رواية «الفرسان الثلاثة» للكاتب ألكساندر دوما. امرأة مغامرة وجريئة تحمل على كتفها علامة زهرة زنبق مكوية بالحديد الحامي، لآتهامها بالسرقة.

نفسى: «أعظم استعراض فى العالم»⁽¹⁾. وبالتحديد مقطع منه: قطار أهل السيرك يتوقف فى الليل، وقد قطعت طريقه السيّارة الأميركيّة. انعكاسات نور القمر. سيرك ميدرانو⁽²⁾. الفرقة الموسيقيّة تعزف بين فقرات العرض. البهلوانات روم وأليكس ودرينا. الأعياد الشعبيّة. عيد فرساي، مع السيّارات الصداميّة بألوانها من البنفسجيّ إلى الأصفر والأخضر والأزرق الليليّ والوردّي... مهرجان ساحة الإنفاليد، مع الحوت يونس. المرائب. عابقة برائحة العتمة والبنزين. نور خافت. الضجيج والأصوات تتبدّد فيها تاركة صدى.

من بين كلّ قراءاتي فى تلك الفترة (جول فيرن، ألكسندر دوما، جوزيف بيريّه، كونان دويل، سيلما لاغرلوف، كارل ماي، مارك توين، جيمس أوليفر كورود، ستيفنسون، «ألف ليلة وليلة»، الكونتيستة دو سيغور، جاك لندن)، أحتفظ بذكرى خاصّة عن «كنوز

(1) *The Greatest Show on Earth* أو بالفرنسيّة *Sous le plus grand chapiteau du monde* فيلم أميركيّ من إخراج سيسيل دوميل.
(2) Cirque Médrano سيرك فرنسيّ شهير أسسه البهلوان جيرونيمو ميدرانو.

الملك سليمان⁽¹⁾ والمقطع حيث يكشف المرشد الشاب عن هويته الحقيقية، معلناً أنه ابن ملك. كتابان جعلني عنوانهما أحلم: «سجين زندا»⁽²⁾، و«لغز السفينة»⁽³⁾.

بين أصدقاتنا من المدرسة في شارع بون دو لودي: بيار دو كيانغ، فيتنامي يدير والداه فندقاً صغيراً في شارع غريغوار دو تور. وزدانيفيتش، خلاسي أسود وجيورجي، ابن شاعر جيورجي يدعى إيليازد. أصدقاء آخرون: جيرار الذي كان يسكن فوق كاراج في دوفيل، في جادة لا ريبوبليك. وفتى يدعى روني لم أعد أذكر بشكل واضح ملامح وجهه، ولا أين عرفناه. كنا نذهب لنلعب معه في منزله، قرب غابة بولونيا. أذكر بشكل مبهم أننا ما إن كنا نجتاز باب المدخل، حتى نلفي أنفسنا في لندن، في أحد منازل بلغريفيا أو كنسنغتون تلك. فيما بعد، حين قرأت

(1) *King Somolon's Mines* أو بالفرنسية *Les Mines du roi Salomon* رواية مغامرات للكاتب البريطاني هنري رايدر هاغارد صدرت عام 1885.

(2) *The prisoner of Zenda* أو بالفرنسية *Le Prisonnier de Zenda* رواية مغامرات للكاتب البريطاني أنتوني هوب، صدرت عام 1894.

(3) *Secret Cargo* أو بالفرنسية *Le Cargo du mystère*، رواية للكاتب البريطاني هاورد بيز، صدرت عام 1931.

قصة غراهام غرين «القبو»⁽¹⁾، خطرت لي أن روني ذاك الذي لا أعرف عنه شيئاً، كان يمكن أن يكون بطلها.

عطلة في دوفيل في بيت صغير، قرب جادة لا ريبوبليك، مع صديقة والدي، ناتالي، مضيقة الطيران. أما والدي، ففي المرات النادرة التي تأتي فيها، كانت تستقبل أصدقاءها الآتيين، من ممثلين يلعبون أدواراً في مسرحية في الكازينو، ورفيق شبابها الهولندي يوبي فان آلن. كان من فرقة المركز دو كوفاس⁽²⁾. حضرت بفضل عرض باليه مؤثراً للغاية: «المسرنمة». رافقت والدي ذات يوم إلى ردهة فندق روابال حيث كان على موعد مع امرأة تدعى السيدة ستيرن، قال لي إنها تملك إسطنبولاً خيول السباق. ما الذي كان يجنيه من السيدة ستيرن تلك؟ كل يوم خميس بعيد الظهر، كنا نذهب أنا وشقيقي لشراء مجلة «طرزان» عند بائع الصحف، هناك، قبالة الكنيسة. قيظ. لا أحد سوانا في الشارع. بقع ظلّ وشمس على الرصيف. رائحة أزهار الحناء...

(1) *The Basement Room* أو بالفرنسية *Première Désillusion*، قصة

قصيرة للكاتب الأميركي غراهام غرين.

(2) فرقة باليه بإدارة المركز دو كوفاس.

في صيف 1956، كُنّا أنا وشقيقي نَسكن البيت الصغير مع والدي وناتالي، مضيّفة الطيران. اصطحبتنا هذه في عطلة في عيد الفصح من السنة نفسها، في فندق في فيلار سور أولون. في باريس، في يوم أحد من العام 1954، بقينا أنا وشقيقي في قعر كواليس «لوفيو كولومبييه» حين انتقلت أُمّي إلى خشبة المسرح. قالت لنا امرأة اسمها سوزي بريم كانت تؤدّي دور البطولة في المسرحيّة، بنبرة بغیضة، إنّه لا يجدر بنا أن نكون هناك. لم تكن تحبّ الأولاد، على غرار الكثير من الممثلات الفاشلات العجائز. بعثت لها رسالة: «سَيّدتي العزيزة، أتمنّى لك عيد ميلادٍ تعساً جدّاً». ما صدمني فيها كان نظرتها القاسية والتهيبية في آنٍ معاً.

الأحد، كُنّا نستقلّ مع والدي الباص رقم 63 حتّى غابة بولونيا. البحيرة والجسر العائم الذي كُنّا نبحر منه في زورق إلى الخليج الصغير ومطعم «لو شاليه ديزيل»⁽¹⁾... ذات مساء، كُنّا ننتظر حافلة العودة في غابة بولونيا، حين دفعنا والدي إلى شارع أدولف إيفون الضيق. توقّف أمام منزل فخم وقال لنا: أتساءل من يسكن هنا الآن -وكأنّه

(1) شاليه الجزر.

أمام مكان أليف. رأيت في ذلك المساء في مكتبه يبحث في
الدليل حسب الشوارع. أثار الأمر فضولي. علمت بعد
عشر سنوات أنه في الرقم 6 من شارع أدولف إيفون، في
منزل فخم لم يعد موجوداً (عدت إلى ذلك الشارع عام
1967 للتثبت من الموقع الذي توقفتنا عنده مع والدي: كان
ذلك يطابق الرقم 6)، كان مقرّ مكتب «أوتو»، أكبر مركز
للاتجار في السوق السوداء بباريس. وفجأة تختلط في رأسي
رائحة عفنة مع روائح دوامة الخيول الخشبية وأوراق
الأشجار اليابسة في غابة بولونيا. أذكر أيضاً أننا في تلك
الفترة، كنا أنا وشقيقي ووالدي نصعد أحياناً بعد الظهر
في حافلة نختارها عشوائياً، ونكمل حتى محطة آخر الخط.
سان مانديه. بوابة جانتيني...

في ديسمبر 1954، التحقت كتلميذ داخلي بمدرسة
مونسيل، في جوي أون جوزاس. الواقع أنني جلت
على جميع مدارس جوي أون جوزاس. الليالي الأولى
في المهجع كانت شاقة وغالباً ما كانت تملكني الرغبة
في البكاء. لكنني بعد وقت قصير بدأت بالقيام بتمرين
لتقوية عزيمتي: كنت أركّز انتباهي على نقطة ثابتة، تكون

بمثابة طلسم. كانت النقطة الثابتة في ذلك الحين حصاناً بلاستيكيّاً صغيراً أسود.

في فبراير 1957، فقدت شقيقي. في يوم أحد، حضر والدي وعمّي رالف لاصطحابي من المدرسة الداخليّة. على الطريق إلى باريس، توقّف عمّي رالف الذي كان يقود السيّارة، وخرج منها وتركني وحيداً مع والدي. في السيّارة، أخبرني والدي بوفاة شقيقي. في يوم الأحد السابق، كنت قد قضيت بعد الظهر معهُ في غرفتنا على رصيف كونتي. وضمّنا معاً مجموعة من الطوابع البريديّة. كان لا بدّ لي من العودة إلى المدرسة في الساعة الخامسة، وشرحت له أنّ فرقة من الممثلين ستؤدّي للتلامذة مسرحيّة في مسرح المدرسة الداخليّة الصغير. لن أنسى أبداً نظرتة في يوم الأحد ذاك.

إذا ما استنيت شقيقي رودي، ووفاته، أعتقد أنّه ليس ثمة بين كلّ ما سأنقله هنا ما يعنيني في الصميم. أكتب هذه الصفحات كمن يحزّر محضراً أو سيرة شخصيّة، بصفة توثيقيّة، ربّما للانتهاء من حياة لم تكن تخصّني. مجرد شريط من الأحداث والأفعال. ليس لديّ ما أعترف به ولا ما

أكشف سرّه، وأنا لا أشعر بأدنى ميل إلى التأمل في النفس ومراجعة الضمير. بل على العكس، كلّما بقيت الأمور غامضة ومبهمة، ازداد اهتمامي بها. لا بل كنت أجهد في إيجاد سرّ لأشياء خالية من الأسرار. والأحداث التي سأنقلها حتّى عامي الحادي والعشرين، عشتها في «عرض خلفيّ»، تلك الوسيلة التي تقضي بعرض مشاهد على شاشة خلفيّة فيما يلزم الممثلون أماكنهم في موقع التصوير في الاستديو. وددت لو أترجم ذلك الانطباع الذي أحسّ به كثيرون من قبلي: كانت الأحداث كلّها تتعاقب كأنّها على شاشة خلفيّة ولم يكن بوسعي بعد أن أعيش حياتي.

بقيت تلميذاً داخلياً في مدرسة مونسيل حتّى العام 1960. أربع سنوات من نظام عسكريّ. كلّ صباح، رفع العلم. مشية عسكريّة. مكانك قف! تأهب! مضايقات يقوم بها بعض «النقباء» من تلاميذ السنة الإعداديّة الثانية، مكلفين بفرض الالتزام بـ «الانضباط». الجرس الكهربائي يعلن النهوض من النوم. الاستحمام على دفعات من ثلاثين. تمارين رياضيّة. استرح. تأهب. وطوال ساعات العمل في البستان، كنّا نمسّط العشب في

صفوف لجرّف أوراق الأشجار اليابسة.

جاري على مقاعد الصفّ في السنة التكميليّة الثالثة كان يدعى سفيرشتاين. كُنّا نبني في المهجع ذاته في الجناح الأخضر. أخبرني أنّ والده كان يدرس الطبّ في فيينا حين كان في العشرين من عمره. في 1938، عند ضمّ النمسا إلى ألمانيا، قام النازيون بإذلال يهود فيينا، فأرغموهم على غسل الأرصفة، ورسم نجمة داود بأنفسهم على واجهات محلاتهم. تحمّل والده كلّ هذا الاضطهاد، إلى أن هرب من النمسا. ذات ليلة، قرّرنا أن نذهب لاستكشاف داخل الموقع المحصّن في قعر البستان. كان يتحمّم علينا عبور البستان الكبير المكسوّ بالعشب، وإن لفتنا انتباه أحد النظراء، فقد نواجه عقاباً صارماً. رفض سفيرشتاين المشاركة في هذه المغامرة الرعناء. في اليوم التالي، عزله رفاقي ونعته بـ «الجبان»، بتلك السهجة الخاصّة بالثكنات العسكريّة، سهجة مضنية، حين يكون «الرجال» فيما بينهم. وصل والد سفيرشتاين بشكل مباغت بعد ظهر أحد الأيّام إلى المدرسة. أراد أن يتكلّم مع كامل مجموعة المهجع. قال لهم بلطف أن يتوقفوا عن

اضطهاد ابنه وعن نعته بـ «الجبان». فاجأت تلك المبادرة رفاقي، وحتى سفيرشتاين نفسه. كُنّا متحلّقين حول الطاولة، في قاعة الأساتذة. وكان سفيرشتاين بجانب والده. تصالح الجميع في أجواء من المرح. أعتقد أنّ الوالد قدّم لنا سجائر. لم يكن أيّ من رفاقي يعلّق في حينه أهميّة على الحادث. ولا حتى سفيرشتاين نفسه. لكنني أحسست جيّداً بتوجّس ذلك الرجل الذي تساءل إن كان الكابوس الذي عانى منه قبل عشرين عاماً سيتكرّر مع ابنه.

كانت مدرسة مونسيل تؤوي أولاداً منبوذين، أبناء غير شرعيّين، أطفالاً ضائعين. أذكر برازيليّاً كان جاري في المهجع لفترة طويلة، لم تكن وردته أيّ أخبار من والديه منذ سنتين، وكأنّها أودعاه بالأمانة في محطة قطارات منسيّة. كان آخرون يقومون بصفقات سراويل جينز وباشروا رغم سنّهم باقتحام حواجز للشرطة. حتى أنّ شقيقين من بين التلاميذ أُحِيلَا بعد عشرين عاماً إلى محكمة الجنايات. شباب مرفّه بمعظمه، شباب ذهبيّ، إنّما من ذهب مريب، فاسد المعدن. معظم هؤلاء الفتيان البسطاء الطيّبين لن يكون لهم مستقبل.

قراءاتي في ذلك الزمن. بعضها طبعني بميسمه: «فيرمينا مركيز»، «جناع العقاب»، «الغراميات الخادعة»، «وتشرق الشمس أيضاً»⁽¹⁾. في كتب أخرى، كنت أستعيد فنطازية الشوارع: «مارغريت الليل»، «مجرّد امرأة»، «شارع بلا اسم»⁽²⁾. كان لا يزال هناك بضع روايات قديمة منسيّة في مكتبات المصحّحات المدرسيّة، روايات نجت من الحربين الأخيرتين، تقبع هناك بخفر متجنّبةً لفت الانتباه، خشية إنزالها إلى القبور. أذكر أنّي قرأت «آل أوبرليه»⁽³⁾. لكنّ أكثر ما كنت أقرأه كان أولى كتب الجيب التي بدأت تصدر حينها، وكتب «السلسلة الأرجوانية» بغلافها الكرتونيّ. روايات جيّدة، روايات رديئة، لا فرق. الكثير من تلك الكتب لم يعد مدرجاً على قائمة الإصدارات. من بين كتب الجيب الأولى تلك، احتفظت بعض العناوين بسحرها بالنسبة لي: «شارع الهرّ الصياد»، «وردة براتيسلافا»،

Fermina Marquez, la Colonie pénitentiaire, Les Amours (1)
.jaunes, Le soleil se lève aussi

.Marguerite de la nuit, Rien qu'une femme, La Rue sans nom (2)

.Les Oberlé (3)

«ماريون فتاة الثلج»⁽¹⁾.

يوم الأحد، نزهة مع والدي وأحد شركائه يومذاك. ستيوبتا. غالباً ما كان والدي يلاقيه. يضع نظارة لعين واحدة، ويدهن شعره بكمية من مرهم التصفيف، حتى أنه كان يترك أثراً على الكنبه حين يسند رأسه إليها. لا يزاول أي مهنة. يسكن في بيت ضيافة على جادة فيكتور هوغو. أحياناً كنا نذهب، أنا ووالدي وستيوبتا، في نزهة إلى غابة بولونيا.

في يوم أحد آخر، اصطحبني والدي إلى معرض القوارب، في ناحية رصيف برانلي. التقينا بأحد أصدقائه من قبل الحرب: «باولو» غيران. شاب كهل يرتدي سترة بليزر. لم أعد أذكر إن كان يزور المعرض هو أيضاً، أم كان يشرف على منصّة فيه. شرح لي والدي أنّ باولو غيران لم يفعل في حياته سوى ركوب الخيل وقيادة سيارات جميلة وإغواء فتيات. فليكن ذلك عبرة لي: أجل، الشهادات ضروريّة في الحياة. في عصر ذلك اليوم، بدا والدي

La Rue du Chat-qui-pêche, La Rose de Bratislava, Marion (1)

.des neiges

سأهماً، وكأنّه التقى بشبح. كلّما صدف لي لاحقاً أن مررت برصيف برانلي، تذكّرت قامة باولو غيران ذاك السمينه بعض الشيء، وجهه الذي بدا لي غليظاً متراخياً تحت شعره الداكن المسرّح إلى الخلف. وسيبقى السؤال عالقاً إلى الأبد: ترى ماذا كان يفعل يوم الأحد ذاك بلا شهادات في معرض القوارب؟

كان هناك أيضاً رجل يدعوه والدي السيّد شارلي دالتون. هو من كان والدي يلهو بالهاتف معه خصوصاً ومع رفيقه القديم لوسيان ب.، فيتقاذفونه مثل كرة رغبي. كان اسمه يوحى لي بالأشقاء دالتون، من كتب القصص المصوّرة⁽¹⁾، واكتشفت لاحقاً أنّه كان كذلك اسم أحد أصدقاء ألفريد دو موسيه واثنين من عشيقاته. وكان هناك رجل يناديه والدي دائماً باسم عائلته: روزن. روزن ذاك كان شبيهاً بالمثل ديفيد نيفن. فهتمت من كلام والدي أنّه أثناء حرب إسبانيا، انخرط في صفوف الفرانكيين. كان يبقى صامتاً، جالساً على الأريكة، على

(1) الأشقاء دالتون هم الأشقاء الأربع في القصص المصوّرة «لوكي لوك» Lucky Luke للرّسام البلجيكي موريس وكاتب السيناريو الفرنسي رينيه غوسيني.

مدى ساعات. وحتى في غياب أبي. وفي الليل أيضاً، على ما أتصوّر. كان جزءاً من الأثاث.

أحياناً كان والدي يرافقني صباح الاثنين إلى مقهى «لا روتوند»، عند بوابة أورليان. هناك كانت تنتظرن الحافلة لتعيديني إلى المدرسة. كنتا نهض قرابة الساعة السادسة، وقبل أن أستقلّ تلك الحافلة، كان والدي يغتتم الفرصة ليعطي مواعيد في مقاهي بوابة أورليان، تضيؤها مصابيح النيون في الصبيحات الشتائية التي لا يزال يلفّها ليل دامس. صغير آلات تحضير القهوة. الأشخاص الذين كان يلتقي بهم هناك كانوا مختلفين عمّن يقابلهم في فندق كلاريدج أو غراند أوتيل. كانوا يتحداثون خافضين أصواتهم. مقدّمو عروض شعبية جوّالة، رجال ذوو سحنات محتقنة توحى بوكلاء تجاريّين متجوّلين، أو وجوه ماكرة مثل موظفي كتاب عدل ريفيين. ما الذي كان يجنيه منهم تحديداً؟ كانوا يحملون أسماء ذات أصداء بلدية: كينتار، شفرو، بيكار...

ذهبنا في صباح يوم أحد في سيّارة أجرة إلى حيّ الباستيل. استوقف والدي سيّارة الأجرة حوالي عشرين

مرّة أمام مبانٍ على جادّة فولتير، وشارع لا ريبوبليك،
وجادّة ريشار لونوار... وفي كلّ محطة، كان يودع ظرفاً
لدى ناطور المبنى. هل هو نداء إلى مساهمين سابقين في
شركة لم تعد قائمة، نبش سنداتها من جديد؟ ربّما اتّحاد
الهند الصينيّة للمناجم ذاك؟ وفي يوم أحد آخر، وزّع
مغلّفاته على طول جادّة بيرير.

أحياناً، مساء يوم السبت، كنّا نزور زوجين مسنّين، آل
فاكون، يسكنان شقّة ضيّقة في شارع رويسو، خلف حيّ
مونمارتر. على جدار الصالون الصغير، كان معروضاً في
إطارٍ الوسام العسكريّ الذي حصل عليه السيّد فاكون في
حرب 1914. كان صاحب مطبعة في ما مضى. كان يهوى
الأدب. أهداني طبعة فاخرة مجلّدة لمجموعة سان بول رو
الشعرية، «الوردة وأشواك الدرب»⁽¹⁾. في أيّ ظروف
تعرفّ والدي عليه؟

أذكر أيضاً شخصاً يدعى ليون غرونوالد. كان يأتي
لتناول الغداء مع والدي عدّة مرّات في الأسبوع. طويل
القامة، شعره رماديّ مموج، رأس كلب سبانيوليّ، كتفان

(1) *La Rose et les épines du chemin*، للشاعر Saint-Pol Roux.

هابطتان ونظرة سئمة. فوجئت بعد انقضاء وقت طويل بالعثور على أثر ذلك الرجل حين قرأت في «قضية بروغلي»⁽¹⁾ لخيوسس إينفانتي أنه، في العام 1968، كان رئيس شركة اسمها ماتيسا «يبحث عن تمويل بقيمة خمسة عشر إلى عشرين مليون دولار». اتصل بليون غرونوالد، «شخص شارك في عمليات التمويل الكبرى التي جرت في لوكسمبورغ». تم توقيع بروتوكول اتفاق بين «السادة جان دو بروغلي، وراوول دو ليون، وليون غرونوالد: إن حصلوا على القرض، فسوف يتقاضون عمولة بقيمة خمسمئة ألف دولار. في تلك الأثناء، توفي غرونوالد حسب ما قرأت. هل قضى من الإعياء؟ لا بدّ من الإقرار بأنّ هذا الصنف من البشر يزاول نشاطاً منهكاً ويقضي في الأرق ليالي كثيرة. وخلال النهار، لا يتوقف عن تبادل المواعيد سعياً لتوقيع «بروتوكولات الاتفاقات» تلك.

بودّي تنشق هواء أكثر صفاء. أشعر بالدوار، لكنني أذكر بعض «مواعيد» والدي. رافقته مرّة عند العصر إلى الشانزليزيه. استقبلنا رجل أصلع قصير القامة، يفيض

(1) *L'affaire de Broglie*، للكاتب Jesus Ynfante.

حيويّة وحفاوة، في حجرة ضيّقة لا تكاد تتسع لنا للجلوس. ظننته واحداً من الأقسام السبعة. كان يتكلم بصوت منخفض، وكأنّه يشغل ذلك المكتب خلسة.

كان والدي يعطي «مواعيده» عادة في ردهة فندق كلاريدج، وكان يصطحبني معه أيام الأحد. في ما بعد ظهرية، بقيت على مسافة فيما كان يتداول همساً مع إنكليزيّ. حاول أن يباغته ويتنزّع منه عنوة ورقة وقّعها الإنكليزيّ للتوّ بالأحرف الأولى من اسمه. لكنّ الأخير تدارك الأمر والتقط الورقة في الوقت المناسب. ما كان «بروتوكول الاتفاق» ذلك؟ كان لوالدي مكتب في المبنى الضخم الأمغر في الرقم 1 من شارع لورد بايرون، حيث كان يدير الشركة الأفريقيّة للأعمال برفقة سكرتيرة تدعى لوسيان واتييه، صانعة قبعات سابقة كان يكلمها بدون كلفة. تلك هي إحدى ذكرياتي الأولى عن شوارع باريس: شارع بلزاك صعوداً، ثمّ نعطف يمينا في شارع لورد بايرون. كان من الممكن الدخول إلى ذلك المكتب أيضاً من مبنى سينما النورماندي على الشانزليزيه، عبر دهليز من الأروقة والممرّات.

فوق الموقد في غرفة والدي، تصطف مجلّدات من «القانون البحري» الذي كان يدرسه. كان يفكر في إطلاق ورشة بناء ناقلة نפט على شكل سيجار. محامياً والدي الكورسيكيان: الأستاذ مارياني الذي كنّا نزوره في منزله، والأستاذ فيتزافونا. نزّهات في يوم الأحد مع والدي ومهندس إيطالي صاحب براءة اختراع لـ «أفران الضغط». كان والدي على علاقة وطيدة مع رجل كان يدعوه السيّد هيلد، كان خبيراً في «الاستشعار بالموجات الذاتيّة»، يحتفظ في كلّ الأوقات ببندول في جيبه. ذات مساء، قال لي والدي في السّلم جملة لم أفهمها جيّداً في حينها -واحدة من المرّات النادرة التي فتح لي فيها قلبه: «علينا ألا نهمل أبداً التفاصيل الصغرى... أنا للأسف لطالما أهملت التفاصيل الصغرى».

في الفترة ذاتها بين 1957 و1958، ظهر رفيق آخر له يدعى جاك شاتيون. عدت ورأيتّه بعد عشرين عاماً -وبات عندها يتّخذ اسم جيمس ب. شاتيون. تزوّج في بداية الاحتلال حفيده تاجر كان يعمل سكرتيراً له، وكان خلال تلك الفترة بائع خيل في نوّبي. بعث

لي برسالة يكلمني فيها عن والدي: «لا تيأس لفكرة أنّ والدك مات وحيداً. لم يكن والدك يبغض الوحدة. كان لديه مخيطة - في الواقع موجهة حصراً نحو الأعمال - واسعة جداً كان يغذيها بعناية، فتغذي ذهنه. لم يكن يوماً وحيداً لأنّه كان دائماً «في توافق» مع المخططات التي كان يبنها، وهو ما كان يعطيه ذلك المظهر الغريب الذي كان يجترّ الكثيرين. كان يبدي فضولاً حيال كلّ شيء، حتّى لو لم يكن موافقاً عليه. ينجح دائماً في إعطاء انطباع بأنّه هادئ، في حين أنّه قد يحتدّ بسهولة ويصبح عنيفاً. حين تعرّضه عقبة، كانت عيناه تومضان. تحملقان، في حين أنّه يحجبها عادةً خلف أهدابه المتثاقلة بعض الشيء. كان قبل أيّ شيء رجلاً يتبع أهواءه ومسراته. ما كان يزيد من ذهول محاوريه كان تلكؤه في الكلام وفي توضيح ما يريد قوله. كان يلّمح ببضع كلمات مبطنّة... يرفقها بإشارات من يده ويلحقها معلناً «هكذا»... مع بضع نحنحات إذا اقتضى الأمر. وإلى الكلام، لا بدّ من القول إنّّه كان يتلکأ في الكتابة أيضاً، وهو ما كان يبرّره في نظره هو نفسه بخطّه غير المفهوم».

كان جيمس ب. شاتيون يودّ منّي أن أكتب مذكرات أحد أصدقائه، لصّ كورسيكيّ يدعى جان سارتوري، توفيّ للتوّ وخالط أثناء الاحتلال جماعة شارع لوريستون وزعيمها لافون. «يؤسفني ألا تكون تمكنت من كتابة مذكرات جان سارتوري، لكنك مخطئ إن ظننت أنه كان صديقاً قديماً للافون. كان يستخدم لافون كحجاب لحماية صفقاته بالذهب والعملات الصعبة، وكان مطلوباً لدى الألمان أكثر منه لدى الفرنسيين. هذا للتوضيح. عدا ذلك، صحيح أنه كان يعرف الكثير عن كل أعضاء فرقة لوريستون».

اتّصل بي عام 1969 إثر صدور روايتي الثانية، وترك لي اسماً ورقم هاتف يمكنني الاتّصال به عليه. كان ذلك رقم شخص يدعى السيّد دو فارغا، كان فيما بعد ضالماً في قتل جان دو بروغلي. أذكر يوم أحد قمنا فيه بنزهة إلى تلة فاليريان، أنا ووالدي وشاتيون ذاك، أسمر مربوع، عيناه سوداوان متقدتان تحت أهداب زاوية. كان يقلّنا في سيّارة بنتلي قديمة مقاعدها الجلديّة غائرة - كلّ ما تبقى له من أملاكه. اضطرّ بعد فترة إلى التخلّي عنها أيضاً، وبات

يأتي إلى رصيف كونتي على درّاجة «فيلوسوليكس»⁽¹⁾. كان مؤمناً ورعاً. سألته ذات يوم من باب الاستفزاز: «ما الفائدة من الدين؟» فأهداني سيرة ذاتية للبابا بيوس الحادي عشر، وعليها إهداء: «إلى باتريك، الذي سيفهم ربّها عند قراءة هذا الكتاب «ما الفائدة»...».

غالباً ما كتنا بقى وحيدين أنا والدي مساء يوم السبت. كُنّا نذهب إلى دور السينما على الشانزليزيه وسينما غومون بالاس. في ما بعد ظهيرة يوم من يونيو، كان الحرّ شديداً وكُنّا نمشي على جاّدة روششوار - لم أعد أذكر السبب. دخلنا نحتمي من الشمس في عتمة صالة صغيرة: سينما دلتا. فيلم وثائقيّ، «محاكمة نورمبرغ»، في سينما جورج الخامس. اكتشفت في الثالثة عشرة صور مخيمات الإبادة. ثمّة شيء تغيّر بالنسبة لي في ذلك اليوم. والدي، ما كان رأيه؟ لم نناقش الأمر يوماً فيما بيننا، حتّى عند خروجنا من صالة السينما.

كُنّا نذهب لتناول البوظة في ليالي الصيف في مقهى روك أو في فندق لا ريجانس. عشاء في مطعم «الألزاسيان»

(1) درّاجة ذات محرك.

في شانزليزيه أو في المطعم الصيني في شارع الكوليزيه. في المساء، كنّا نضع على مشغّل الأسطوانات الجلديّ الأحمر القاني عيّنات اسطوانات بلاستيكيّة كان يعتمز إطلاقها في السوق. وعلى المنضدة الليليّة الصغيرة، أذكر كتاباً: «كيف نكسب أصدقاء»، ما يجعلني اليوم أفهم عزلته. في صباح يوم اثنين، خلال عطلة، سمعت وقع خطى في الأدراج الداخليّة المؤدّية إلى الطابق الخامس حيث كانت غرفتي، ثمّ أصواتاً في الحمام الكبير المجاور. كان مأمورو حجزٍ يحملون كلّ بذلات والدي وقمصانه وأحذيته. أيّ حيلة تراه ابتكرها حتّى لا يصادروا الأثاث؟

العطلة الصيفيّة في 1958 و1959 في ميخيف، حيث كنت وحيداً مع فتاة تدرس في أكاديميّة الفنون الجميلة، كانت تسهر عليّ مثل شقيقة كبرى. كان فندق «لا ريزيدانس» مغلقاً، وكأنّه مهجور. كنّا نعبّر الردهة المعتمة للذهاب إلى حوض السباحة. وبعد الساعة الخامسة مساءً، كانت فرقة موسيقيّة إيطاليّة تعزف على حافة ذاك الحوض. كان طبيب وزوجته يؤجّرانا غرفتين في منزلها. زوجان غريبان. المرأة السمراء كانت تبدو مجنونة. كان لديها ابنة

بالتبني من عمري، رقيقة وديعة مثل كل الأطفال الذين لم يعرفوا الحنان، وكنت أقضي معها بعد الظهائر في قاعات الصفوف المهجورة في المدرسة المجاورة. في نور الشمس الصيفيّة، رائحة عشب وقطران.

عطلة عيد الفصح في عام 1959، مع رفيق اصطحبنني الى مونتي كارلو عند جدّته، المركيزة دو بولينياك، حتّى لا أبقى محتجزاً في المدرسة الداخليّة. كانت أميركيّة. علمت فيما بعد أنّها كانت ابنة عمّ هاري كروسبي، ناشر لورنس وجويس⁽¹⁾ في باريس، والذي انتحر في سنّ الثلاثين. كانت تقود سيّارة سوداء بالدفع الأمامي. كان زوجها يعنى بإنتاج نبيذ الشمبانيا، وكانا قبل الحرب على علاقة مع يواكيم فون ريبنتروب⁽²⁾، يومَ كان هو نفسه تاجر شمبانيا. لكنّ والد ريفيقي كان مقاوماً سابقاً وتروتسكياً. كان له كتابٌ عن الشيوعيّة في يوغوسلافيا، كتب مقدّمته سارتر. لن أعرف كلّ ذلك إلّا فيما بعد. في مونتي كارلو، كنت أقضي ما بعد ظهائر كاملة عند تلك المركيزة، أتصفّح

(1) James Joyce و D.H. Lawrence.

(2) دبلوماسي وسياسي ألمانيّ كان وزير خارجيّة لألمانيا النازيّة بين 1938 و1945. كان قبل ذلك رجل أعمال وكان يستورد النبيذ والشمبانيا.

ألبومات صور جمعتها منذ العشرينيات، تظهر حياة الرغد وخلاء البال التي عاشتها مع زوجها. أرادت أن تعلّمني القيادة، فسلمتني مقود سيارتها السيروين 15 حصاناً على طريق متعرّجة. أخفقت منعطفاً وكدنا نسقط في الهاوية. اصطحبتنا أنا وحفيدها إلى نيس لمشاهدة لويس ماريانو⁽¹⁾ يغني في سيرك بيندر.

أقمت عدّة فترات بين 1959 و1960 في إنكلترا، في بورنموث تحديداً. فرلين أقام في تلك الناحية: شاليهات مبعثرة، حمراء بين خضرة الأشجار وفيلات المنتجعات الساحلية البيضاء... لم أكن أنوي العودة إلى فرنسا. لم تردني أيّ أبناء عن والدي. وكنت أعتقد أنّ الأمر يناسب والدي، إن أنا بقيت في إنكلترا لفترة أطول ممّا كان مقرّراً. العائلة التي كنت أقيم عندها لم يعد بوسعها إيوائني. فقصدت مكتب الاستقبال في أحد الفنادق، حاملاً الثلاثة آلاف فرنك قديم التي كنت أملكها، فسمحوا لي بالنوم مجاناً في صالون لم يكن مستخدماً في

(1) لويس ماريانو (1914-1970) مغني أوبريت شهير من أصل باسكي رافق سيرك بيندر بين 1957 و1959 وجال معه أرجاء فرنسا.

الطابق الأرضي. ثم فتح لي مدير المدرسة حيث كنت أتابع دروساً بالإنكليزية كل صباح، حجرة في مطلع الدرج، أشبه ما تكون بمستودع صغير لتوضيب المهملات. فهربت إلى لندن. وصلت في المساء إلى محطة واترلو. عبرت جسر واترلو. وتملّكني الذعر من فكرة أن أبقى وحيداً في تلك المدينة التي بدت لي أكبر من باريس. وفي ترافلغار سكوير، دخلت كشكاً أحمر واتّصلت بوالدي على حسابه. حاولت أن أخفي عليه هلعي. لم يستغرب كثيراً لمعرفة أنني في لندن وحدي. وتمنّى لي حظاً سعيداً بصوت غير مبالي. قبلوا بمنحي غرفة في فندق صغير في بلومزبري، رغم أنني كنت قاصراً. لكن لليلة واحدة لا غير. وفي اليوم التالي، جرّبت حظّي في فندق آخر في ماربل آرتش. هناك أيضاً، غضّوا الطرف عن سنّي التي لم تكن تحطّ الخامسة عشرة، ووضعوا تحت تصرفي غرفة ضيقة. كان ذلك زمن موجة «فتيان تيدي»⁽¹⁾ في إنكلترا،

(1) موجة ثقافية للشبيبة ظهرت في بريطانيا في الخمسينيات، فيما كانت البلاد تخرج من حقبة التقشّف التي تلت الحرب، انتشرت بين شباب اعتمدوا طراز ملابس مستوحى من الحقبة الإدواردية، وغالباً ما نعتوا بالعنف والقسوة، وارتبطت منذ نشأتها بموسيقى الروك اند رول.

وكانت كريستين كيلر⁽¹⁾ قد وصلت للتوّ إلى لندن، قادمة من بلدها. علّمت فيما بعد أنّها كانت تعمل في ذلك الصيف نادلة في مطعم يونانيّ صغير في شارع بيكر، على مقربة من المطعم التركيّ حيث كنت أتناول العشاء قبل أن أتسكّع قليلاً على طول شارع أوكسفورد. «وتوماس دو كوينسي، متناولاً الأفيون، سمّ العذوبة والطهر، يمضي حالماً بحبيته المسكينة آن...»⁽²⁾

في ليلة من ليالي سبتمبر 1959، كنت مع والدتي وأحد أصدقائها، في مطعم عربيّ اسمه «الكتيبة»، في شارع ليزيكول⁽³⁾. الساعة متأخرة. والمطعم مقفر. كُنّا ما زلنا في فصل الصيف. الجوّ حارّ. الباب مشرّع على الشارع. في تلك السنوات الغربية من شبّابي، كانت العاصمة الجزائريّة امتداداً لباريس، وباريس كانت تتلقّى موجات العاصمة الجزائريّة وأصدقاءها، وكانّ الرياح الجنوبيّة الحارّة تعصف

(1) عارضة أزياء وراقصة إنكليزيّة، عرفت خصوصاً بإثارتها فضيحة عام 1963 إبان الحرب الباردة جرّاء ارتباطها بعلاقة مع وزير الدولة البريطاني للحرب آنذاك جون بروفومو ومع الملحق العسكري في سفارة الاتّحاد السوفياتي إيفغيني إيفانوف في آن.

(2) قصيدة لغّيوم أبولينير.

(3) شارع المدارس.

بأشجار حدائق التويلري، حاملةً معها بعضاً من رمال الصحراء والشواطئ... في الجزائر وباريس، درّاجات «الفيسبا» ذاتها، ملصقات الأفلام ذاتها، الأغاني ذاتها تنبعث من أجهزة الجوك-بوكس في المقاهي، وسيّارات «الدوفين»⁽¹⁾ ذاتها في الشوارع. بعد فترة من الوقت، فجّروا «الكتيبة». وذات مساء في سان جرمان دي بريه -أم كان ذلك في الجزائر العاصمة؟- فجّروا متجر جاك رومولي للقمصان.

في ذاك الخريف من العام 1959، كانت والدتي تمثّل في عرض في مسرح فونتين. في مساء أيام السبت، حين كنت أخرج من المدرسة، كنت أنجز فروضي المدرسيّة أحياناً في مكتب مدير ذلك المسرح. وكنت أتسكّع في الجوار. اكتشفت حيّ بيغال، وكان أقلّ قرويّةً من سان جرمان دي بريه، وأكثر شبهةً بقليل من شانزليزيه. هناك، في شارع فونتين، وفي ساحة بلانش وشارع فروشوه، لامست لأول مرّة أسرار باريس، وبدأت أحلم حياتي، من غير أن أدرك ذلك بوضوح.

(1) نموذج من سيّارات رينو.

في رصيف كونتي، كان هناك وافدان جديدان يسكنان الشقة: روبير فلاي، وهو صديق لوالدي من أيام الشباب، يؤدي دور السائق له ويرافقه أينما ذهب في سيارة سيتروين دي إس 19، وروبير كار، وهو خياط ارتبطت به والدتي أثناء تصوير فيلم «الحلقة المفرغة»⁽¹⁾ لماكس بيكاس، حيث لعبت دور أجنبية ثرية ومربية كانت عشيقة رسّام شاب. في يناير 1960، هربت من المدرسة لأنني كنت مغرماً بفتاة تدعى كيكى داراغان، التقيت بها عند والدتي. وبعدما مشيت حتى حظائر مطار فيلاكوبليه، ومن هناك توجهت بالباص والمترو إلى سان جرمان دي بريه، صادفت كيكى داراغان في مقهى مالافوس الذي كان يبيع التبغ أيضاً، عند زاوية شارع بونابارت ورصيف النهر. كانت جالسة هناك برفقة أصدقاء من طلاب معهد الفنون الجميلة. نصحوني بالعودة إلى المنزل. دققت الباب لكنّ أحداً لم يفتح. لا بدّ أنّ والدي غادر مع روبير فلاي في السيتروين دي إس 19. أمّا والدتي، فغائبة كالعادة. لا بدّ لي من المبيت في مكان ما. عدت إلى المدرسة الداخليّة بالمترو والباص،

.Le Cercle vicieux (1)

بعدها طلبت بعض النقود من كيكى وأصدقائها. وافق المدير على بقائي حتى شهر يونيو. على أن أُطرد عند نهاية العام الدراسي.

في أيام الخروج النادرة من المدرسة الداخليّة، كان والدي وروبير فلاي يصطحبانني معهما أحياناً في تجوالهما. كانا يذرعان أرياف مقاطعة ليل دو فرانس⁽¹⁾. يلاقيان كتاب عدل ويزوران أملاكاً من جميع الأصناف. يتوقّفان في أنزال في الغابات. يبدو أنّ والدي كان يريد لسبب اضطراريّ ما، قضاء عطلة في الريف. في باريس، مداولات تدور همساً بين روبير فلاي وولدي في قعر مكتب أوافيهما فيه، في 73 جادة أوسمان. كان لروبير فلاي شاربان أشقران. عدا قيادة سيّارة السيتروين، لم أكن أدري ما يمكن أن تكون نشاطاته. شرح لي أنّه بين الحين والآخر يقوم بـ «جولة» في بيغال، ثمّ يعود إلى رصيف كونتي قرابة الساعة صباحاً. أمّا روبير كار فقد حوّل إحدى غرف الشقّة إلى مشغل خياطة. وقد أطلق

(1) ليل دو فرانس (حرفياً: «جزيرة فرنسا») هو اسم المنطقة المحيطة بباريس، أي باريس وضواحيها والبلدات الصغيرة القريبة منها.

عليه والدي لقب «تروفالدان»، باسم إحدى شخصيات الكوميديا ديلاوتي. وروبير كار هو الذي كان يصمم في الأربعينيات ملابس أوائل المشبهين بالنساء: لا زامبيلا، ولوكي سارسيل، وزيزي موستيك.

رافقت والدي إلى شارع كريستوف كولومب، حيث زار أحد «رفاقه» الجدد، ويدعى مورافسكي، في منزل فخم في ذلك الشارع، الرقم 12 أو 14. كنت أنتظره وأنا أمشي ذهاباً وإياباً تحت أغصان أشجار الكستناء. كان الربيع في بداياته. وكانت والدتي تمثل في مسرحية في مسرح «تياتر ديزار»⁽¹⁾ الذي كانت تديره سيّدة تدعى ألكسندرا روبيه جانسكي. كانت المسرحية بعنوان «النساء يردن أن يعرفن»⁽²⁾. ألفها صانع منتجات حريرية من ليون ورفيقته، وتكفلاً بتمويلها بالكامل، فاستأجرا بنفسهما المسرح ودفعا للممثلين. كانت الصالة فارغة في كلّ مساء. والمشاهدون الوحيدون كانوا الأصدقاء القلائل للصناعي المتحدّر من ليون. وبحكمةٍ نصح المخرج صانع الحرائر بالألا يدعو

(1) مسرح الفنون.

(2) *Les femmes veulent savoir*.

النقاد إلى العرض، بحجة أنهم «بغضون»...
في آخر يوم أحد قبل العطلة الصيفية، قادمي روبير
فلاي ووالدي عند المساء في سيارة السيرون دي إس
19 إلى مدرسة مونسيل، وانتظرا أن أنتهي من توضيب
حقيبتني. وبعدها وضعت الحقيبة في صندوق السيارة،
غادرت جوي أون جوزاس نهائياً، سالكاً الطريق العام
غرباً.

يبدو أنّهم أرادوا إبعادي عن باريس. ففي سبتمبر 1960، كنت مسجلاً في مدرسة سان جوزيف ببلدة تون، في جبال سافوا العليا. كان السيّد جاك غيران وزوجته ستيلّا، عمّتي، مسؤولين عنيّ. كانا يستأجران على ضفة بحيرة آنسي، في فيرييه، منزلاً أبيض على نوافذه درف خشبيّة خضراء. لكنّ عدا أيّام الأحد النادرة التي كان يؤدّن فيها للتلاميذ بالخروج، والتي لم أكن أغادر المدرسة خلالها سوى لبضع ساعات، لم يكن يسعهما أن يفعلا من أجلي شيئاً ذا بال.

«جاكي» غيران يعمل لمجرّد المتعة «في النسيج»، هو متحدّر من ليون، بوهيميّ، يهوى الموسيقى الكلاسيكيّة، والتزلّج والسيّارات الجميلة. أمّا ستيلّا غيران، فهي تراسل

المحامي بيار جاكو⁽¹⁾ في جنيف، الذي كان في حينه مداناً بالقتل ومسجوناً. وحين أُطلق سراحه، ذهبت لمقابلته في جنيف. التقيت به معها قرابة العام 1963 في بار فندق موفنيك. حدّثني في الأدب، وخصوصاً في ما لأرميه.

كان اسم جاكوي غيران غطاءً لعمّي رالف، شقيق والدي الأصغر: ف «مؤسّسات غيران»، في 74 شارع هوتفيل، كانت في الواقع بإدارة عمّي رالف. لم أتبيّن يوماً حقيقة وظيفة مؤسّسات غيران تلك، التي كانت أشبه بمستودع يقيم عمّي رالف مكتبه في قعره ويبيع فيه «معدّات». سألته بعد بضع سنوات لماذا كانت تلك المؤسّسات تحمل اسم «غيران» وليس اسمه هو «موديانو». فأجابني بلكنته الباريسيّة: «تعرف، الأسماء ذات الوقع الإيطالي لم تكن مستحبة بعد الحرب..».

في آخر ما بعد ظهائر العطلة، قرأت على شاطئ فيرييه دو لاك الصغير «الشیطان في الجسد»⁽²⁾ و«الشاباط»⁽³⁾.

(1) Pierre Jaccoud محام وسياسي سويسريّ أُدين بالقتل في قضية أثارت سجالاتاً كبيراً وكانت موضع فضيحة قضائيّة في سويسرا في الستينيّات.

(2) *Le Diable au corps* (1923) رواية للكاتب الفرنسي ريمون راديجيه.

(3) *Le Sabbat* رواية للكاتب الفرنسي موريس زاكس صدرت بعد وفاته عام 1945.

وقبل أيام قليلة من بدء العام الدراسي الجديد، بعث لي والدي برسالة صارمة كفيّلة بأن تنال من معنويات فتى على وشك الدخول إلى سجن مدرسة داخلية. هل أراد بذلك أن يريح ضميره ويعلّل نفسه بأنه كان على حقّ بترك فتى جانح لمصيره؟ «ألبير رودولف موديانو، 15 رصيف كونتي، باريس الدائرة السادسة، 8 سبتمبر 1960. أعيد إليك الرسالة التي بعثتها لي من سان لو. لا بدّ أن أقول لك أنّي لم أصدّق للحظة عند تسلّم هذه الرسالة، أنّ رغبتك في العودة إلى باريس مردها التحضير لامتحان محتمل للانتقال إلى مدرستك المقبلة. لذلك قرّرتُ أن تغادر فور صباح اليوم التالي إلى آنسي في قطار الساعة التاسعة. أترقّب تصرّفك في هذه المدرسة الجديدة، ولا يسعني سوى أن أتمنى من أجلك أن يكون سلوكك مثاليّاً. كنت أنوي القدوم إلى جنيف لزيارتك. هذه الرحلة تبدو لي في الوقت الحاضر من غير فائدة. ألبير موديانو.»

قامت والدي بزيارة خاطفة إلى آنسي اشترت لي فيها قطعتين من مستلزماتي، قميصاً رمادياً وحذاءين بنعلين من المطاط بسعر مخفّض، داما لي عشر سنوات من غير

أن ينفذ إليهما الماء مرّة. وغادرتني قبل وقت طويل من مساء دخولي المدرسة الداخليّة. أمر شاقّ على الدوام أن نرى طفلاً يدخل المدرسة الداخليّة، ونحن على يقين من أنّه سيبقى سجيناً فيها. بودّنا استبقاؤه. هل طرحتُ على نفسها السؤال؟ يبدو أنّي لم أتلّ استحسانها. ثمّ كان عليها أن تغادر إلى إسبانيا حيث كانت ستمكث لفترة طويلة.

سبتمبر من جديد. العودة إلى المدرسة، في مساء يوم أحد. الأيام الأولى في ثانويّة سان جوزيف كانت شاقّة عليّ. لكنني اعتدت الأمر سريعاً. مضت عليّ أربع سنوات وأنا في مدارس داخليّة. رفاقي في تون كانوا في معظمهم من أصول قرويّة، وكنت أفضلهم على الأندال المترفين في مونسيل.

للأسف، كانت القراءات تحت المراقبة. وفي العام 1962، طُردت لبضعة أيّام إثر مطالعة «السنابل الخضراء»⁽¹⁾. حصلت بفضل أستاذي للغة الفرنسيّة الأب أكامبريه على إذن «خاصّ» لمطالعة رواية «السيدة بوفاري»⁽²⁾ المحظورة

(1) *Le Blé en herbe* (1923) رواية للكاتب كوليت.

(2) *Madame Bovary* رواية للكاتب الفرنسي غوستاف فلوبيير.

على باقي التلاميذ. احتفظت بنسخة الرواية التي كُتبت عليها: «تمت الموافقة. الصفّ الأول ثانوي»، مع توقيع مدير الثانوية الأب جانان. كان الأب أكامبريه نصحني بقراءة رواية لموريك، «دروب البحر»⁽¹⁾، أعجبتني كثيراً، وخصوصاً النهاية، حتى أنني ما زلت حتى اليوم أذكر الجملة الأخيرة منها: «... كما في فجر الأيام الخوالي الحالك». جعلني أقرأ أيضاً «المقتلعون من جذورهم»⁽²⁾. هل أحسّ بأنّ ما كنت أتوق إليه قليلاً كان قرية في سولونيا أو في فالوا، أو بالأحرى الصورة التي كنت أكوّن عنها في أحلامي؟ كانت قراءاتي المسائيّة في المهجع، موضّبة في المنضدة الليليّة: «مهنة العيش»⁽³⁾ لبافيزي. لم يخطر لهم أن يحرموه عليّ. «مانون ليسكو»⁽⁴⁾. «بنات النار»⁽⁵⁾.

(1) *Les Chemins de la mer* (1939) رواية لفرنسوا موريك.

(2) *Les Déracinés* (1897) رواية لموريس باريس.

(3) *Le Métier de vivre* يوميات الشاعر الإيطالي تشيزاري بافيزي صدرت بعد وفاته عام 1952.

(4) *Manon Lescaut* رواية للكاتب الفرنسي الأب بريفو صدرت عام 1731.

(5) *Les Filles du feu* مجموعة قصصيّة وشعرية للشاعر الفرنسي جيراردو نرفال صدرت عام 1854.

«مرتفعات ويدرنيغ»⁽¹⁾. «يوميات كاهن في الريف»⁽²⁾.
الإذن بالخروج مرّة في الشهر لبضع ساعات، ثم حافلة
مساء الأحد تعيدني إلى الثانويّة. كنت أنتظرها عند أسفل
شجرة باسقة، قرب بلدية فيرييه دو لاك. غالباً ما كنت
أضطرّ إلى البقاء واقفاً طوال الطريق. كان هناك فلاحون
يعودون إلى مزارعهم بعد قضاء يوم الأحد في المدينة. كان
الليل يهبط. نعبّر أمام قصر مانتون سان برنار، مقبرة قرية
أليكس الصغيرة ومدفن أبطال هضبة غليار⁽³⁾. حافلات
مساء الأحد تلك، وتلك القطارات بين آنسي وباريس،
مكتنّزة بالركّاب كما في وقت الاحتلال. ثمّ إنّ الحافلات
والقطارات كانت لا تزال تقريباً على ما كانت عليه آنذاك.
انقلاب الجزائر⁽⁴⁾ الذي تابعت وقائعه في المهجع،

(1) *Les Hauts de Hurlevent (Wuthering Heights)* رواية للشاعرة
واللکاتبة البريطانيّة إميلي برونتي صدرت عام 1847 وتعتبر من
كلاسيكيات الأدب الإنكليزي.

(2) *Journal d'un curé de campagne* رواية لجورج برنانوس صدرت
عام 1936.

(3) هضبة كانت من مراكز المقاومة خلال الحرب العالميّة الثانية.

(4) يُعرف بـ «انقلاب الجزائر» أو «انقلاب الجزائر»، أُحبط بعد أقلّ من أسبوع، وقد قام به، في
21 أبريل 1961، أربعة جنرالات فرنسيين في الجزائر المستعمرة، احتجاجاً
على سياسة شارل ديغول التي عدّوها تخلياً عن الحضور الفرنسي في
الجزائر أو عمّا كان يُدعى «الجزائر الفرنسية».

بواسطة راديو ترانزيستور صغير، وأنا أقول لنفسي إنَّ عليّ اغتنام الهلع العامّ المخيّم لأهرب من الثانويّة. لكن سرعان ما استتبّ التّظام من جديد في فرنسا، في مساء يوم الأحد التالي.

الأضواء الليليّة الخافتة في المهجع. العودة إلى المهجع بعد العطلات. الليلة الأولى تكون شاقّة. نستيقظ ولا ندري أين نحن. الأضواء الليليّة تذكّرنا بذلك بشكل فجّ. الأضواء تطفأ في الساعة التاسعة مساء. السرير الضيق جدّاً. الشراشف التي لا يبدّلونها على مدى أشهر والتي تبعث رائحة نتنة. الملابس أيضاً. النهوض الساعة السادسة والرّبع صباحاً. الاغتسال بشكل مقتضب بالماء البارد، أمام مغاسل تمتدّ على طول عشرة أمتار، أحواض شرب للمواشي يعلوها صفّ من الصنابير. الفروض. الفطور. قهوة بلا سكر في قصعة معدنيّة. لا زبدة. في الفرصة الصباحيّة، تحت سقف الملعب، بوسعنا أن نقرأ في مجموعات نسخة من صحيفة «ليكو لبرتيه»⁽¹⁾. توزيع شرحة من الخبز الحافّ ومرّبع من الشوكولاتة المرّة في

.L'Echo Liberté (1)

الساعة الرابعة بعد الظهر. عصيدة الذرة للعشاء. أتضوّر
 جوعاً. أشعر بالدوار. في أحد الأيام، اعترضنا مع بعض
 الرفاق مسؤولَ المائيّة، الأب برون، متشكّين من أنّنا لا
 نحصل على ما يكفي من الطعام. نزهة للصفّ بعد ظهر
 الخميس في جوار تون. أغتنم المناسبة لشراء مجلّات «لي
 لير فرانسيز»، «آر»، و«نوفيل ليتيرير»⁽¹⁾ من القرية. أنكبّ
 على قراءتها من الغلاف إلى الغلاف. كانت تلك المجلّات
 كلّها تتكدّس على منضدتي الليليّة. فرصة ما بعد الغداء،
 كنت أستمع خلالها إلى الترانزيستور. هناك، خلف
 الأشجار، أنين المنشرة الرتيب. أيام ماطرة تطول بلا نهاية
 في الملعب المسقوف. صفّ المراحيض التركيّة بأبوابها التي
 لا تغلق بإحكام. الصلاة في الكنيسة الصغيرة في المساء
 قبل العودة في الصفّ إلى المهجع. الثلج طوال ستّة أشهر.
 ذلك الثلج، لطالما وجدت فيه شيئاً مؤثراً وودوداً. وفي
 تلك السنة، أغنية على الترانزيستور: «لا، لم أعد أذكر اسم
 المرقص الصغير المنسيّ»⁽²⁾...

(1) *Nouvelles littéraires Les Lettres françaises, Arts*

(2) *Non, je ne me souviens plus du nom du bal perdu* ... أغنية

رائجة للممثل والمغني والفكاهي الفرنسي يورفيل.

تلقيت خلال العام الدراسي رسائل نادرة من والدتي، أرسلتها من أندلوسيا. وصلتني معظم تلك الرسائل إلى منزل عائلة غيران، في فيريه دو لاك، باستثناء رسالتين أو ثلاث وصلت إلى المدرسة. كان نظام المدرسة يقضي بفتح الرسائل التي يتم تلقيها وإرسالها، واستغرب الأب جانان أمر تلك الوالدة بلا زوج في أندلوسيا. كتبت لي من إشبيلية: «يجدر بك أن تبدأ بمطالعة مونترلان. أعتقد أنك قد تتعلم الكثير منه. اسمعني بحق، يا ابني الكبير. طالع مونترلان، أرجوك، قم بذلك. سوف تجد لديه نصائح سديدة. كيف يجدر بشاب أن يتصرف حيال النساء مثلاً. حقاً، إن قرأت «الصبايا»⁽¹⁾ لمونترلان، فسوف تتعلم الكثير». فاجأني إلحاحها كثيراً: لم تكن والدتي قرأت سطرًا واحداً لمونترلان. صديقتها الصحافي جان كو هو الذي أوعز إليها بأن تعطيني تلك النصيحة. أجد نفسي في حيرة اليوم: هل كان يودّ حقاً أن يصبح مونترلان مرشدي في الحياة الجنسيّة؟ قمت إذاً بقراءة ساذجة لرواية «الصبايا».

(1) *Les Jeunes Filles* لمونترلان.

أنا أفضل بين أعمال مونترلان «الملف الباريسي»⁽¹⁾. في 1961، بعثت لي والدتي رسالة ثانية أثارت عن غير قصد ريبة الأب جانان. ضمنت والدتي رسالتها تلك قصاصات صحف عن مسرحية بعنوان «إشارة كيكوتا»⁽²⁾ كانت تمثل فيها وتجول بها مع فرنان غرافي.

عيد الميلاد عام 1960، في روما مع والدي وصديقتي، إيطالية شديدة العصبية، تصغره بعشرين عاماً، شعرها أشقر بلون القش، ومظهرها نسخة زائفة عن ميلين دومونجو⁽³⁾. ثمّة صورة عن سهرة العيد التقطت في نادٍ ليليّ قريب من شارع فينيثو، تحتل تلك العطلة. أبدو فيها مطرقاً في أفكار، وبعد مضيّ أربعين عاماً، أتساءل ما الذي كنت أفعله هناك. أقول لنفسي من باب التعزية إنّ الصورة مفبركة. كانت ميلين دومونجو الزائفة تريد الحصول من الكنيسة على بطلان زواج أول. رافقتها بعد ظهر أحد الأيام إلى الفاتيكان، لزيارة منسيور يدعى

(1) *Le Fichier parisien* لمونترلان.

(2) *Le Signe de Kikota* للكاتب المسرحي روجيه فردينان.

(3) Mylène Demongeot ممثلة من نجوم السينما الفرنسية في الخمسينيات والستينيات.

بندولا. كان رجل الدين ذاك، رغم رداءه وصورة البابا المعروضة على مكتبه وعليها إهداء بخط يد الحبر الأعظم، يشبه الانتهازيين الذين كان والدي يلتقي بهم في فندق كلاريدج. بدا والدي في عيد الميلاد ذاك متعجباً لرؤية التقرّحات العميقة على أصابعي بسبب البرد.

المدرسة الداخليّة من جديد، حتّى العطلة الصيفيّة. في بداية يوليو، عادت والدي من إسبانيا. ذهبت لملاقاتها في مطار جنيف. وجدتها صبغت شعرها بلون داكن. استقرّت في فيريه دو لاك، عند الزوجين غيران. كانت مفلسة تماماً. لا شيء سوى زوج من الأحذية. لم تكن الجولة في إسبانيا مثمرة، ورغم ذلك لم تفقد شيئاً من عنجهيّيّها. تروي بزهو قصصاً «رائعة» عن أندلوسيا وعن مصارعى الثيران. لكن تحت طلاء المغالاة والجموح، لم يكن القلب رقيقاً. قضى والدي بضعة أيّام في الجوار، برفقة المركيز فيليب دو د. الذي كان ينجز معه أعمالاً. رجل أشقر ذو شاربين، طويل القامة جهوريّ الصوت، تتبعه عشيقة سمراء. استعار من والدي جواز سفره للذهاب إلى سويسرا. كانا متشابهين بالقامة والشاربين والقوام، وكان د. فقد أوراقه

إذ غادر تونس على عجل بسبب أحداث بنزرت. أذكر نفسي محاطاً بوالدي، فيليب دو د. والعشيقة السمراء، على شرفة مطعم «بير بيز»⁽¹⁾ في تالوار، وأتساءل من جديد ما الذي كنت أفعله هناك. في آب، غادرنا، أنا ووالدي، إلى كنوك لوزوت، حيث استضافنا أفراد عائلة كانت صديقة لها قبل الحرب في بيتهم، فيلاً صغيرة. كانت تلك بادرة طيبة من جانبهم، وإلا لكنا اضطررنا إلى النوم في العراء أو في مأوى لـ «جيش الخلاص»⁽²⁾. شبيبة مرفهة بليدة ترتاد نوادي الكارتيנג. كان صناعتيون من غنت يذكر سلوكهم المستهتر المتغطرس بأصحاب يخوت، يتبادلون التحية بأصواتهم الرزينة العريضة، بلغة فرنسية يجهدون لإعطائها وقعاً إنكليزياً. كان صديق شباب لوالدي أشبه بطفل هرم سائب، يدير نادياً ليلياً خلف الكثبان، من ناحية اوستانده. ثم عدت وحيداً إلى سافوا العليا وعادت والدي إلى باريس. بدأت بالنسبة لي سنة دراسية جديدة في

(1) مطعم Père Bise.

(2) بالرغم من التسمية، ليس المقصود هنا جيشاً بل جماعة مسيحية بروتستانتية مستقلة عن الكنائس تقوم بأعمال خيرية لمساعدة الفقراء ومن هم بلا مأوى.

ثانوية سان جوزيف.

عطلة جميع القديسين عام 1961. شارع روابال في أنسي، تحت المطر والثلج الذائب. في واجهة المكتبة، رواية مورافيا، «السأم»، وعليها شريط كُتب عليه: «والتحرّر منه بالإيروسية»⁽¹⁾. خلال عطلة عيد جميع القديسين الكئيبة تلك، قرأت «الجريمة والعقاب»⁽²⁾، وكان ذلك عزائي الوحيد. أصبت بالجرب. قصدت طيبة عثرت على اسمها في دليل أنسي. بدت مندهشة لحالتي الواهنة. سالتني: «هل لديك أهل؟» أمام حنّوها ورفقها الأموميّ، تماكنت نفسي حتى لا أنهار بالبكاء.

في يناير 1962، رسالة من والدي لم تقع لحسن الحظّ بين يدي الأب جانان: «لم أتصل بك هذا الأسبوع، لم أكن في المنزل. ذهبت مساء الجمعة إلى حفل الكوكتيل الذي أقامه ليتفاك في موقع تصوير فيلمه. ذهبت أيضاً إلى العرض الأوّل لفيلم تروفو «جول وجيم»⁽³⁾، وهذا المساء، سأذهب لمشاهدة مسرحيّة كالديرون في المسرح

(1) *L'Ennui. Et sa diversion: l'érotisme*

(2) *Crime et Châtiment* لدوستوفسكي.

(3) *Jules et Jim* للمخرج فرنسوا تروفو.

الوطني الشعبي... أفكر بك وأعرف كم أنك تعمل
بجهد. كن شجاعاً يا بني العزيز. ما زلت غير نادمة على
رفض التمثيل في مسرحية مع بورفيل. سوف أكون تعيسة
إن لعبت دوراً بذيئاً كهذا. أمل أن أجد عرضاً آخر. لا
تظن أنك غبت عن بالي، لكنني لا أجد وقتاً لأرسل لك
طرداً».

في فبراير 1962، اغتنمت عطلة ثلاثاء المرفع حتى
أستقلّ قطاراً مكتظاً بالركاب إلى باريس، وحرارتي 39
درجة. كنت أمل أن يقبل والداي عند رؤيتي مريضاً
بأن يحتفظا بي لبعض الوقت في باريس. كانت والدتي
قد استقرت في الطابق الثالث من الشقة، الذي فرغ من
الأثاث إلا من كنبه غائرة. أما والدي، فكان يقيم في الطابق
الرابع مع ميلين دومونجو الزائفة. وجدت من جديد عند
والدتي الصحافي جان كو، يحميه حارس شخصي بسبب
اعتداءات منظمة الجيش السري⁽¹⁾. شخص غريب حقاً،
ذاك السكرتير السابق لسارتر، رجل ذو رأسٍ وشقي

(1) Organisation de l'armée secrete (OAS) منظمة فرنسية مؤيدة لـ
«الجزائر الفرنسية» انتهجت العمل المسلح.

ومفتون بمصارعي الثيران. في الرابعة عشرة من عمري، أقنعتَه بأن ابن ستافيسكي⁽¹⁾ ينام بجواري في المهجع، وأن رفيقي هذا الذي يتخذ اسماً مستعاراً أسرّي بأن والده لا يزال على قيد الحياة في مكان ما في أميركا الجنوبية. حضر كو إلى الثانوية في سيارة سيتروين أربعة أحصنة، عازماً على التعرّف بأيّ ثمن على «ابن ستافيسكي»، على أمل تحقيق سبق صحافيّ. التقيت من جديد في ذلك الشتاء أيضاً بجان نورمان (المعروف باسم جان دوفال)، وهو صديق لوالدي كان ينصحني حين كنت في الحادية عشرة بمطالعة كتب من السلسلة السوداء⁽²⁾. لم يكن بوسعي أن أعرف آنذاك، في العام 1956، أنّه كان خارجاً للتوّ من السجن. كان هناك أيضاً ميراي أروسوف. كانت تنام في الصالون، على الكنبّة القديمة. سمراء في الثامنة والعشرين أو الثلاثين من العمر. عرفتُها والدي في أندلوسيا. كانت متزوّجة من روسيّ يدعى إيدي أروسوف، ويُلقّب بـ

(1) ألكساندر ستافيسكي (1886-1934)، رجل مال فرنسيّ كان ضالعا في فضيحة اختلاس أموال وعُثر عليه ميتاً في مسكنه، ما أثار سجلاً حول ما إذا كان انتحر حسب الرواية الرسميّة أو قُتل.

(2) سلسلة Série Noire للروايات البوليسيّة.

«القنصل»، لأنه يشرب بقدر شخصيّة مالكولم لاوري⁽¹⁾ كوكتيلات «كوبا ليبري». كانا يديران فندقاً-مشرباً في توريمولينوس. كانت هي فرنسيّة. وروت لي أنّه حين كانت في السابعة عشرة من عمرها، في صباح اليوم الذي كان يفترض بها خوض امتحانات البكالوريا فيه، لم يرنّ المنبه. فبقيت نائمة حتّى الظهر. كان ذلك في مكان ما صوب مقاطعة اللّاند. في اللّيل، كانت والدتي تغيب، فأبقى برفقة ميراي أوروسوف. لم يكن بوسعها أن تغفو في تلك الكنبه القديمة الغائرة. وأنا، كان لديّ سرير كبير... وذات صباح، كنت معها في ساحة الأوديون. قرأت لنا غجريّة طالعنا في خطوط الكفّ، تحت قنطرة ممّر كور دو كوميرس سانت أندريه. قالت لي ميراي أوروسوف إنّها تتشوّق لمعرفة كيف سأكون بعد عشر سنوات.

العودة إلى تون في طقس مارس الكئيب. قام أسقف أنسي بزيارة رسميّة للثانويّة. قبلنا خاتمه. خطاب. قدّاس. وتلقّيت من والدي رسالة لم يفتحها الأب جانان، كانت

(1) «القنصل»، شخصيّة رواية «تحت البركان» *Under the Volcano* لمالكولم لاوري، صدرت عام 1947.

ستمثّل رسالة والد صالح لابنه الصالح، لو كانت فقط مطابقة للواقع: «2 مايو 1962. عزيزي باتريك، يجب أن نتناقش في كلّ شيء وبصراحة مطلقة. إنّها الوسيلة الوحيدة التي لا بديل عنها حتّى لا نصبح غريبين أحدنا عن الآخر مثلما يحصل أحياناً كثيرة للأسف في العديد من العائلات. إنّني سعيد لأنك كلّمتني عن المشكلة التي تواجهها اليوم: ماذا ستفعل لاحقاً، في أيّ اتجاه توجّه حياتك. شرحت لي من جهة أنّك أدركت أنّ الشهادات ضروريّة للفوز بمنصب جيّد، ومن جهة أخرى أنّك بحاجة إلى التعبير عن نفسك من خلال تأليف كتب أو مسرحيّات، وأنّك تودّ أن تكرّس نفسك كلياً لذلك. معظم الرجال الذين حقّقوا أكبر نجاحات أدبيّة، بمعزل عن بعض الاستثناءات النادرة، أمّوا دراسات لامعة. أنت نفسك تعرف مثلي نماذج عديدة: سارتر ما كان كتب بعض مؤلّفاته لو لم يتابع دراساته حتّى التبريز في الفلسفة. كلوديل كتب «حذاء الساتان»⁽¹⁾ حين كان ملحقاً شاباً في السفارة في اليابان، بعدما تخرج بتميّز من معهد العلوم

.Le Soulier de satin (1)

السياسيّة. رومان غاري الذي فاز بجائزة غونكور، تلميذ سابق في معهد العلوم السياسيّة وقنصل في الولايات المتّحدة». كان يتمنى لو أصبح مهندساً زراعياً. كان يعتقد أنّ هذه مهنة لها مستقبل. إن كان يعلّق هذا القدر من الأهميّة على الدراسات، فذلك لأنّه هو نفسه لم يدرس شيئاً، وكان يشبه بعض الشيء رجال العصابات أولئك الذين يصرون على أن تتربى بناتهم في مدرسة داخلية عند الراهبات. كان يتكلّم بلكنة باريسية طفيفة -لكنه حيّ هوتفيل، وشارع «بوتي زوتيل»⁽¹⁾، وحيّ تريفيز، حيث تُسمع وسط الصمت رققة سبيل الماء تحت الأشجار. كان يستخدم بين الحين والآخر كلمات عاميّة، لكنه كان بوسعه أن يوحى بالثقة لمؤلّين، إذ يبدو بقامته الطويلة وبذلاته الرزينة الصارمة، رجلاً ودوداً وكتوماً.

اجتزتُ امتحانات الباكالوريا في آنسي. تلك ستكون الشهادة الوحيدة التي أحصل عليها في حياتي. باريس في يوليو. والدي. والدي. كانت تلعب دوراً في إعادة لمسرحيّة

.Rue des Petits Hôtels (1)

«الأبواب تصطفق»⁽¹⁾ على خشبة مسرح دونو. ميلين دومونجو الزائفة. حديقة مونسو حيث أقرأ المقالات عن نهاية الحرب في الجزائر. غابة بولونيا. أكتشف «رحلة في أقاصي الليل»⁽²⁾. وأشعر بالسعادة حين أمشي وحيداً في شوارع باريس. في يوم أحد من شهر آب، صوب الجنوب الشرقي، عند جادة جوردان وجادة كيليرمان، في ذلك الحي الذي عرفته بشكل جيّد فيما بعد، علمت على واجهة بائع صحف بانتحار مارلين مونرو.

شهر أغسطس في آنسي. كلود. كانت في العشرين من عمرها في ذلك الصيف من العام 1962. كانت تعمل لدى خياط في ليون. ثم عملت عارضة أزياء «رهن الطلب». ثم في باريس عارضة أزياء حقيقية. ثم تزوجت أميراً من صقلية وانتقلت للعيش في روما حيث يتوقف الزمن إلى الأبد. روبر. أثار فضيحة في آنسي إذ جاهر بأعلى صوته بكونه «مخنثاً». كان منبوذاً في تلك المدينة الريفية. كان في السادسة والعشرين في ذلك الصيف ذاته من العام 1962.

(1) *Les Portes claquent*

(2) *Voyage au bout de la nuit* رواية للكاتب لوي فردينان سيلين.

كان يوحى لي بـ «ديفين» في رواية «سيّدة الأزهار»⁽¹⁾. حين كان فتى شاباً، كان روبير صديقاً للبارون البلجيكي جان ل. اثناء نزول الأخير في فندق إمبيريال بالاس في آنسي، ذلك البارون ذاته الذي عرفت والدتي مزوّده بالغلّمان في أنتفيرن عام 1939. التقيت بروبير من جديد في 1973. كُنّا في سيّارته مساء يوم أحد في جنيف، حين عبر جسر بيرغ، وكان ثملاً إلى حدّ أنّنا كدنا نسقط في نهر الرون. توفي عام 1980. كان هناك آثار ضرب على وجهه وأوقفت الشرطة أحد أصدقائه. قرأت في إحدى الصحف: «الموت الحقيقي لشخصيّة روائية».

فتاة اسمها ماري. في الصيف، كانت تستقلّ مثلي الحافلة في آنسي، عند ساحة بلاس دو لا غار⁽²⁾، في الساعة السابعة مساء بعد عملها. تعود إلى فيرييه دو لاك. تعرّفت عليها في تلك الحافلة. كانت تكبرني سنّاً بفارق طفيف وبدأت العمل كطابعة على الآلة الكاتبة. خلال أيّام عطلتها، كُنّا نلتقي على شاطئ فيرييه دو لاك الصغير.

(1) Divine اسم شخصيّة متشبهه بالنساء في رواية سيّدة الأزهار - Notre-Dame-des-Fleurs للروائي الفرنسي جان جينيه.

(2) ساحة المحطّة.

كانت تقرأ «تاريخ إنكلترا»⁽¹⁾ لموروا، وروايات مصوّرة كنت أذهب لشرائها لها قبل أن أوافيها على الشاطيء.

الفتيان من عمري الذين كُنّا نراهم في فندق سبورتينغ أو في مطعم «لا تافيرن»، والذين ذهبوا أدراج الرياح: جاك ل. المعروف بلقب «المركيز»، ابن عنصر في الميليشيا⁽²⁾ أعدم رمياً بالرصاص في أغسطس 1944 في غران بورنان. بيار فورنييه الذي كان يحمل عصاً ذات مقبض. وكلّ الذين كانوا ينتمون إلى جيل حرب الجزائر: كلود بران، زازي، باولو إرفيو، روزي، لا يايات التي كانت عشيقه بيار براسور⁽³⁾. كانت دومينيك السمراء ذات السترة الجلديّة السوداء تعبر تحت القناطر ويقال عنها إنّها تعتاش «من مفاتها» في جنيف... كلود بران وأصدقائه.

(1) *Histoire d'Angleterre*

(2) «الميليشيا الفرنسيّة» منظمة سياسيّة وشبه عسكريّة شكّلتها حكومة فيشي في مطلع 1943 لمكافحة المقاومة ضدّ الاحتلال الألماني، قامت بمهامّ متممة للغستابو وغيرها من القوات الألمانيّة، وعرفت بممارستها العنف والتعذيب. أعلن حلّها عند تحرير فرنسا وتعرّض عناصرها لملاحقات وتصفيات.

(3) ممثّل فرنسي.

شلة من «الفيتيلوني»⁽¹⁾. كان فيلمهم المفضل «الأميركية الرائعة»⁽²⁾. عند العودة من حرب الجزائر، اشتروا سيارات أم جي مستعملة. وقد اصطحبوني معهم ذات مرّة إلى مباراة ليلية لكرة القدم. راهن أحدهم على أنّه سيتمكّن من إغواء زوجة محافظ المنطقة خلال خمسة عشر يوماً وإقناعها بمرافقته إلى فندق «غراند أوتيل» في فردان، وكسب الرهان. آخر كان عشيق امرأة ثريّة وجميلة جدّاً، أرملة أحد الأعيان، ترتاد خلال الشتاء نادي البريدج في الطابق الأوّل من الكازينو.

كنت أستقلّ الحافلة للذهاب إلى جنيف حيث يرافقني والدي أحياناً. كنّا نتناول الغداء في مطعم إيطاليّ مع شخص يدعى بيكار. بعد الظهر، كان مرتبطاً بمواعيد. غريبة كانت جنيف في بدايات الستينيات. كان هناك جزائريّون يتكلّمون بأصوات منخفضة في ردهة فندق

(1) فيلم *I Vitelloni* للمخرج الإيطالي فيديريكو فيليني، يروي قصة مجموعة من الفتيان العاطلين عن العمل الذين يعيشون على حساب أهلهم ويقضون وقتهم بين المقاهي وملاعب البلياردو والتسكّع.

(2) فيلم *La Belle Américaine* للمخرج الفرنسي روبرت ديري عُرض عام 1961 تدور وقائعه حول سيارّة أميركيّة رائعة.

الرون. كنت أتسكع من ناحية البلدة القديمة. كان يقال إنّ دومينيك السمراء التي كنت مغرماً بها كانت تعمل ليلاً في النادي 58، في شارع غلاسي دو ريف. في طريق العودة، كانت الحافلة تعبر الحدود عند المغيب دون أن تتوقف عند مركز الجماهرك للتفتيش.

في صيف 1962، جاءت والدتي في جولة إلى آنسي لتقديم مسرحيّة «اسمعوا جيّداً أيها السادة»⁽¹⁾ لساشا غيتري في مسرح الكازينو، مع جان مارشا وميشال فلام، أشقر من صنف «الفتى الوسيم» - في سروال سباحة مرقط كجلد النمر. كان يقدم لنا مرطبات في مقهى نادي السبورتينغ. نزهة في يوم أحد مع كلود عبر منتزه باكييه ومرجه المكسوّ بالعشب، عند انتهاء العطلة. الخريف من جديد. نعبّر أمام مركز الإدارة حيث كانت تعمل إحدى صديقاتها. آنسي تعود مدينة ريفيّة. نصادف في منتزه باكييه أرمنيّاً عجوزاً، وحيداً على الدوام، تقول لي كلود إنّّه تاجر طائل الثراء يوزّع الكثير من الأموال على الفتيات والفقراء. وسيارة جاكى غيران الرماديّة تدور بهيكلها من تصميم أليمانو

.Ecoutez bien, messieurs (1)

حول البحيرة، ببطء، إلى الأبد. سوف أواصل كرّ سبحة
تلك السنوات، بلا حنين، وإنما بصوت مستعجل ملحاح.
ما ذنبي إن كانت الكلمات تتدافع. لا بدّ من الإسراع، وإلاّ
لفقدت الشجاعة.

في سبتمبر، التحقت بثانوية هنري الرابع في باريس،
صفّ الفلسفة، كتلميذ داخليّ، في حين أنّ والديّ يقيمان
على مسافة بضع مئات الأمتار من المدرسة. مضت عليّ
ستّ سنوات وأنا في مدارس داخلية. عرفت أنظمة أكثر
قسوة في المدارس السابقة، لكنني لم أمرّ بمدرسة داخلية
محصّنة مثل ثانوية هنري الرابع. وخصوصاً ساعة أرى
تلاميذ القسم الخارجيّ يخرجون من المدخل الرئيسيّ إلى
الشارع.

لم أعد أذكر جيّداً رفاقي الداخليّ. يبدو لي أنّ ثلاثة
فتيان يتحدّرون من سارّينغمين كانوا يعدّون لامتحانات
المدرسة العليا للأساتذة. وغالباً ما كان مارتينيكيّ من
تلاميذ صفّي ينضمّ إليهم. كان تلميذ آخر يدخن الغليون

باستمرار، وكان يرتدي قميصاً رمادياً وينتعل خفّين صوفيين. وكان يُقال إنّه لم يخرج من حرم المدرسة منذ ثلاث سنوات. أذكر أيضاً بشكل مبهم جاري في المهجع، أصهب قصير القامة، لمحته بعد سنتين أو ثلاث سنوات من بعيد، على جادة سان ميشال، يرتدي بدلة جنديّ تحت المطر... بعد إطفاء الأضواء، كان حارس ليليّ يعبر المهاجع، حاملاً بيده مصباحاً، ليتبّت من أنّ الجميع في أسرّتهم. كان ذلك في خريف 1962، إنّما حتّى في القرن التاسع عشر، أو لربّما كذلك في حقبة أبعد في الزمن.

جاء والدي مرّة واحدة لزيارتي في تلك المدرسة. أذن لي مدير الثانويّة بأن أنتظره تحت سقيفة المدخل. كان ذلك المدير يحمل اسماً جميلاً: أدونيس ديلفوس. ظلّ والدي يرتسم هناك في المدخل المسقوف، لكنني لا أميّز وجهه، وكانّ وجوده وسط ذلك الديكور الشبيه بدير من القرون الوسطى بدا لي غير حقيقيّ. ظلّ رجل طويل القامة، بلا رأس. لم أعد أذكر إن كان هناك ردهة للزيارات. أعتقد أنّ مقابلتنا جرت في الطابق الأوّل، في صالة المكتبة، أو قاعة الأعياد. كنّا وحيدين، جالسين خلف طاولة، الواحد

مقابل الآخر. رافقته حتى مدخل المدرسة المسقوف. ابتعد في ساحة البانتيون. أخبرني في أحد الأيام أنه كان هو أيضاً يتردد على حيّ المدارس حين كان في الثامنة عشرة من العمر. كان يكاد لا يملك من النقود ما يكفي لتناول قهوة بالحليب مع بضع قطع الكرواسان بمثابة فطور في مقهى دوبون لاتان. وكان لديه في تلك الفترة غشاوة في الرئة. أغمض عينيّ وأتصوّره يرتقي جادة سان ميشال، بين تلاميذ الثانويات الرصينين وطلاب حركة العمل الفرنسي⁽¹⁾. حيّ اللاتينيّ الخاصّ به كان بالأحرى حيّ فيوليت نوزير⁽²⁾. لا بدّ أنّه صادفها أحياناً كثيرة على الجادة. فيوليت، «التلميذة الفاتنة في ثانوية فينلون، التي كانت تربّي خفافيش في منضدتها»⁽³⁾.

(1) Action française حركة سياسية وطنية من أقصى اليمين نشطت بصورة خاصة خلال النصف الأوّل من القرن العشرين.

(2) فتاة كانت في الثامنة عشرة حين حُكم عليها عام 1933 بالإعدام لإدانتها بقتل والدها ومحاولة قتل والدتها بالسّم، قبل خفض عقوبتها وإطلاق سراحها عام 1945. قضيتها كان لها وقع شديد في فرنسا لظرحها موضوعاً كان محرّماً في حينه، إذ اتهمت والدها باغتصابها.

(3) بيت من قصيدة تحمل عنوان «فيوليت نوزير» للشاعر أندريه بروتون الذي دافع بلا كلل مع غيره من الكتاب السرياليّين عن الفتاة.

تزوج والدي من ميلين دومونجو الزائفة. سكنا في الطابق الرابع، وبقيت والدي في الثالث. كان الطابقان يشكّان شقة واحدة حين كان والداي يعيشان معاً. وفي 1962، لم تكن الشقتان منفصلتين بعد. خلف باب ملغى، لا تزال هناك السلام الداخلية التي بناها والدي عام 1947، حين بدأ يستأجر الطابق الثالث أيضاً. لم تكن ميلين دومونجو الزائفة تودّ أن أكون تلميذاً خارجياً وأن أواصل مقابلة والدي. بعد شهرين في المدرسة الداخلية، تلقّيت الرسالة التالية من والدي: «ألبير رودولف موديانو، 15 رصيف كونتي، باريس الدائرة السادسة. صعّدت هذا الصباح في الساعة التاسعة والربع لتبلغني بأنك قرّرت عدم العودة إلى الثانوية ما لم أعدل عن قراري بإبقائك تلميذاً داخلياً. وقرابة الساعة 12,30، أكّدت لي مجدداً ما سبق. إنّ سلوكك لا يوصف. إن كنت تظنّ أنّك باستخدامك أساليب الابتزاز الوضع هذه سترغمي على التنازل، فأنت واهمّ حقاً. أنصحك بشدة إذاً، لأجل مصلحتك الخاصة، أن تعود صباح غد إلى مديرك، ومعك رسالة اعتذار تبرّر غيابك بإصابتك بالإنفلونزا. ولا بدّ

لي من تحذيرك بشكل قاطع وحاسم، بأنك إن تصرّفت بخلاف ذلك، فلسوف تندم. عمرك سبعة عشر عاماً، أنت قاصر، وأنا والدك ومسؤول عن دراستك. أنوي زيارة مدير مدرستك. ألبير موديانو».

لم تكن والدي تملك أيّ نقود في أكتوبر ذاك من العام 1962، ولم تكن لديها أيّ ارتباطات لمسرحيّة. وكان والدي يهدّني بالتوقّف عن دفع نفقتي إن لم أعد إلى مهجع المدرسة الداخليّة. حين أفكّر في المسألة اليوم، يتراءى لي أنني لم أكن أكلفه الكثير: مجرد بدل النظام الداخليّ المتواضع. لكنني أذكر أنني رأيته في أواخر الخمسينيّات معدماً تماماً، إلى حدّ أنّه اقترض منّي الألف فرنك قديم التي كان جدّي يقطعها أحياناً من معاشه كعامل متقاعد، ليرسلها لي. كنت أشعر بنفسني أقرب إليه منّي إلى والديّ. واصلت «إضرابي» عن المدرسة الداخليّة. وفي بعد ظهر أحد الأيام، لم يعد لدينا أنا ووالدي قرش واحد. كنّا ننتزّه في حدائق التويلري. قرّرت أن تطلب مساعدة من صديقتها سوزان فلون. كانت تلك آخر حيلة بيدها. قصدنا منزل سوزان فلون مشياً، فلم يكن بحوزتنا حتّى

بعض العملة لشراء تذكرتي مترو. استقبلتنا في شقتها على
جادة جورج الخامس. شقة ذات شرفات على طبقتين،
يخال الواحد فيها أنه على متن سفينة. استبقنا للعشاء.
روت لها والدتي «مأسينا» بكثير من التفجع، منتصبة بكل
قامتها، مشيرةً بذراعيها في حركات مسرحية وقاطعة لا
تقبل النقاش. أنصتت سوزان فلون بمودة، مبديةً أسفها
لهذا الوضع. وأعربت عن عزمها على كتابة رسالة لوالدي.
وناولت والدتي بعض المال.

في الأشهر التالية، اضطرّ والدي إلى التسليم بالأمر
وتقبّل أنّ أغادر نهائيّاً المهاجع التي اعتدتها منذ سنّ الحادية
عشرة. كان يحدّد لي مواعيد في المقاهي. ويجتّم مأخذه عليّ
وعلى والدتي. لم أتمكّن من إرساء علاقة حميمة بيننا. وكنت
مضطرباً في كلّ مرّة إلى استجداء ورقة خمسين فرنكاً منه،
كان يقبل في النهاية مرغماً ويناولني إياها على مضض،
فأجلبها لوالدتي. في بعض الأيام، كنت أعود خالي
الوفاض، فتصاب بنوبات غضب. لم يدم الأمر طويلاً
-في قرابة الثامنة عشرة من عمري وخلال السنوات
التالية-، حتّى صرت أجهد لأجد لها بوسائلي الخاصة

أوراق الخمسين فرنكاً البائسة تلك التي تحمل صورة جان راسين، لكن من غير أن أنجح في تبديد العدائية التي لطالما أظهرتها حيالي، وقلة عطفها عليّ. لم أتمكن يوماً من البوح لها بما يخالجنني، ولا من طلب أدنى مساعدة منها. أحياناً، مثل كلب بلا سلالة بقي متروكاً لحاله أكثر مما ينبغي، تملكني رغبة طفولية في أن أدون بشكل واضح ومفصل كل ما عانيته جرّاء قسوتها وطيشها. ألزم الصمت. وأغفر لها. كل ذلك بات الآن بعيداً جداً... أذكر أنني نسخت في الثانوية جملة ليون بلوا: «في قلب البشر المسكين زوايا غير موجودة بعد، يدخل الألم إليها حتى تكون». لكنّ الألم في حالتي كان بلا جدوى، من الصنف الذي لا يمكن حتى استخلاص قصيدة منه.

كان يفترض بالبوّس أن يقرب بيننا. في إحدى السنوات - 1963-، توجب «وصل» الغاز بالشقّة. كان لا بدّ من إجراء أشغال. لم تكن والدتي تملك المال لدفع ثمنها. ولا أنا كذلك. كنّا نعدّ الطعام على موقد كحوليّ صغير. ولم نكن نشعل التدفئة إطلاقاً في الشتاء. هذا العوز سيلاحقنا لفترة طويلة. في ما بعد ظهيرة أحد أيام يناير 1970، كنّا في

حالة من اليأس، إلى حدّ أنها جرّتني إلى مكتب الإقراض برهنٍ في شارع بيار شارون، حيث أودعتُ قلم حبر «من الذهب بريشة من الماس» كان موريس شوفالييه سلّمه لي بمناسبة تقديم جائزة أدبيّة. لم أحصل لقاءه سوى على مئتي فرنك قبضت والدتي عليها بنظرة قاسية.

لاحقنا طوال تلك السنوات «غمّ الاستحقاق». لم يكن بدل إيجار تلك الشقق القديمة المتداعية منذ ما قبل الحرب بالمبلغ الكبير في ذلك الحين. ثمّ راحت الإيجارات تزداد اعتباراً من العام 1966، مع تبدّل الحيّ ومتاجرهِ وسكّانه. لا تلوموني على الخوض في مثل هذه التفاصيل، فهي تسبّبت لي ببعض الهموم التي تبدّدت سريعاً، لأنّني كنت أوّمن بالمعجزات وأتية في أحلام بالثروة تليق بروايات بالزك.

بعد مواعيدي الكثيبة مع والدي، لم نكن مرّة نعود وندخل معاً إلى المبنى. كان يدخل قبلي، فيما يترتب عليّ الانتظار لبعض الوقت بناءً على تعليماته، فألتفتّ حول الحيّ. كان يخفي لقاءاتنا عن ميلين دومونجو الزائفة. كنت أقابله وحيداً عادةً. في إحدى المرّات، تناولنا الغداء

مع المركيز فيليب دو د.، فانقسمت الوجبة بين مطعمين، أحدهما على رصيف اللوفر والآخر على رصيف غران أوغوستان. شرح لي والدي أنّ من عادة فيليب دو د. أن يتناول الغداء في عدّة مطاعم في آن، يعطي مواعيد فيها لأشخاص مختلفين... فيتناول مقبّلات في واحد، وطبقاً في آخر، ثمّ يبدّل المطعم من جديد لتناول الحلوى.

يوم تبعنا فيليب دو د. من رصيف اللوفر إلى رصيف غران أوغوستان، كان يرتدي ما يشبه سترة عسكرية. يدّعي أنّه كان خلال الحرب عنصراً في سرب النورماندي نيمان⁽¹⁾. غالباً ما كان والدي يذهب لقضاء عطلة نهاية الأسبوع عند د. في قصره، في مقاطعة اللوار الأطلسية. حتّى أنّه كان يشارك هناك في رحلات لصيد البط، رغم أنّ ذلك لم يكن تماماً ضمن مهاراته. أذكر الأيام القليلة التي قضيناها عام 1959 في سولونيا، عند بول بيرتول، زوجته والكونت دو ناليس، إذ كنت أخشى أن يتخلّى والدي عني وأن يجزّني هؤلاء القتلة معهم إلى حملات صيدهم بالأحصنة والكلاب. وبها أنّه كان مرتبطاً «بأعمال» مع

(1) فوج قتاليّ تابع لسلاح الجوّ الفرنسي.

بول بيرتول، فكان مرتبطاً «بأعمال» أيضاً مع فيليب دو د. كان د. في شبابه، على حدّ قول والدي، ابن عائلة ضالاً، حتّى أنّه دخل السجن مرّة. وقد أراني لاحقاً صورة قصّها من مجلّة «ديتيكتيف»⁽¹⁾ يمكن رؤيته فيها مكبّل اليدين بالأصفاد. لكنّ د. كان ورث للتوّ في ذلك الحين تركة طائلة من جدّته (ولدت لعائلة دو ف.)، وافترض أنّ والدي كان بحاجة له ممّوّلاً. فكان لديه حلم يراوده منذ نهاية الخمسينيّات، وهو أن يعيد شراء أسهم عقار في كولومبيا. وكان يعوّل بالتأكيد على فيليب دو د. ليساعده على تحقيق هذا المشروع.

تزوّج د. بطلة في سباق السيّارات، وأنهى حياته مفلساً تماماً، مديراً لحانة ليليّة في الحمّات بتونس أولاً، ثمّ مدير كاراج في بوردو. أمّا والدي، فبقي لبضع سنوات متمسكاً بحلمه الكولومبيّ. في العام 1976، نقل لي أحد أصدقائي بطاقة عليها البيانات التالية: «موكوبيا، شركة مالية. مقرّ الشركة: باريس (الدائرة التاسعة) 22 شارع بيرجير. رقم الهاتف: 770, 76, 94. شركة مساهمة فرنسيّة. الرئيس

(1) *Détective* مجلة فرنسيّة متخصصة في التحقيقات والجرائم.

والمدرء: رئيس مجلس الإدارة: السيّد ألبير رودولف
موديانو. المدرء: السيّدان شارل روشفي، ليون ميشيل
تيسون وشركة كافير تراست (السيّد راوول ميلنوت).
تمكّنت من التعرّف إلى أعضاء مجلس الإدارة ذلك:
الأوّل، تيسون، حين تلقّيت بالخطأ بدل والدي في سبتمبر
1972 هذه البرقيّة من طنجة: «1194 طنجة 34601 عاجل
تسديد إيجار بيرجير - سكرتيري مريضة - الردّ سريعاً
تيسون». تيسون ذلك كان متموّلاً في طنجة. أمّا ميلنوت
من شركة كافير تراست، فكان في الماضي أحد أعضاء
المديريّة الدوليّة لمنطقة التجارة الحرّة.

وبصحبة والدي خلال فترة 1963-1964 تلك، التقيت
برجل ثالث من مجلس الإدارة: شارل روشفي. كان والدي
يستشهد بفشل شارل روشفي ذلك ليحذّرني من معبّة
الإمعان أكثر ممّا ينبغي في دروس «أدبيّة». كان روشفي
زميلاً لروجيه فايتان⁽¹⁾ وروبير برازيك⁽²⁾ في الصفوف
الإعداديّة الأدبيّة في معهد لوي لو غران، ولم ينجز شيئاً

(1) كاتب وصحافيّ ومسرّحيّ فرنسيّ.

(2) كاتب وصحافيّ فرنسيّ عرف بالتزامه السياسيّ إلى جانب الحركة
الفاشيّة. حوكم وأعدم عام 1945.

مجدياً في حياته. مظهره يوحي بسويسريّ متهتك يهوى البيرة، كاهن باللباس المدنيّ، ذي نظّارتين معدنيّتي الإطار وشفّتين متراخيتين، يرتاد سرّاً الحمّامات العامّة في جنيف بحثاً عن مغامرات مع مثليّين. وهو خمسينيّ مطلق يعيش مع امرأة تصغره سنّاً، مكتنزة، شعرها قصير، في غرفة منعدمة النوافذ بطابق أرضيّ، في الدائرة السادسة عشرة من باريس. يحدس الواحد لديه استعداداً للقيام بأيّ عمل دنيء. لا بدّ أنّه كان يقوم مقام منقذ مهامّ لوالدي، وشريك الأعمال المشبوهة، غير أنّ ذلك لم يكن يمنعه من تلقيني دروساً في الأخلاق بصوت دجّال يدّعي الحكمة. عدت وصادفته عام 1976 على أدراج رصيف كونتي، مترهلاً تحت وطأة السنين، أشبه بمتسكّع مشرّد، وجهه متورّم، ويحمل كيس تبضع يتدلّى من ذراعه كمن يسير في نومه. اكتشفت أنّه يسكن شقّة الطابق الرابع التي كان والدي غادرها للتوّ متوجّهاً إلى سويسرا، والتي كانت خالية من أيّ قطعة أثاث، وقد قُطعت عنها التدفئة والماء والكهرباء. كان متسلّلاً إليها، يعيش فيها كما تيسّر مع زوجته. كانت ترسله للتسوّق - بضع علب طعام محفوظ على الأرجح.

تحوّلت إلى امرأة شكسة سليطة اللسان. أسمع زعيقها كلما عاد المسكين إلى الشقّة. أفترض أنّه لم يعد يعوّل على دخله كعضو في مجلس إدارة موكوبيا. تلقّيت بالخطأ عام 1976 تقريراً لهذه الشركة الماليّة، جاء فيه أنّه «تمّ إعطاء تعليمات إلى محامي شركتنا في بوغوتا من أجل الشروع في دعوى طلب تعويضات أمام القضاء الكولومبيّ. نعلمكم على سبيل البيان أنّ السيّد ألبير موديانو، رئيس مجلس إدارتكم، هو عضو في مجلس إدارة شركة ساوث أميركان تيمبر ويمثل شركتنا في هذا الفرع». بيد أنّ الحياة قاسية وظالمة، تبتدّد أجمل الأحلام: رئيس مجلس الإدارة لن يتقاضى أيّ تعويضات من بوغوتا.

عيد الميلاد 1962. لم أعد أدري إن كان هناك ثلج فعلاً في عيد الميلاد ذلك. في مطلق الأحوال، أراه في ذكرياتي يتساقط في الليل نُدفاً ضخمة فوق الطريق والحظائر. كان هنري ب. وجوزيه يستضيفانني في مريض الخيول في سان لو. جوزيه، الفتاة التي كانت تعتنني بي بين الحادية عشرة والرابعة عشرة من عمري في غياب والدتي. زوجها هنري كان بيطريّ المريض. كانا ملاذي الوحيد.

في السنوات التالية، عدت مراراً عندهما في سان لو. هذه المدينة التي كانت تلقب بـ «عاصمة الأنقاض» دُمّرت تحت قنابل عمليّة الإنزال⁽¹⁾، وفقد العديد من الناجين أيّ أثر لهويّتهم أو دليل عليها. توجّب إعادة إعمار سان لو، واستمرّت العمليّة حتّى الخمسينيّات. كان لا يزال هناك قرب المربض منطقة من الأكواخ المؤقتة. خلال تلك الزيارات، كنت أذهب إلى مقهى «البالكون» والمكتبة العامّة. وكان هنري يصطحبني إلى مزارع الجوار حيث يعتني بالحيوانات، حتّى خلال الليل حين يستدعونه. في الليل، حين كنت أفكر بكلّ تلك الأحصنة التي تحرس الجوار حولي أو الراقدة في حظائرها، كان يغمرني شعور بالارتياح لعدم اقتيادها إلى المسلخ، مثل صفّ الأحصنة التي رأيتها ذات صباح عند بوابة برانسيون.

صادقت بعض الفتيات في سان لو. كانت إحداهنّ تقيم في المحطّة الكهربائيّة. وأخرى، في سنّ الثامنة عشرة، تريد الانتقال إلى باريس والدخول إلى الكونسرفاتوار.

(1) إنزال الحلفاء قوّاتهم في النورماندي في 6 يونيو 1944 لتحرير فرنسا من الاحتلال النازي.

كانت تعرض لي مشاريعها في مقهى قرب محطة القطارات. كانت المدن الريفية من مثيلات آنسي وسان لو لا تزال تعيش حينها في الزمن الذي كانت كل الأحلام وكل النزعات الليلية تفضي فيه إلى المحطة التي ينطلق منها القطار إلى باريس.

قرأت «الأوهام الضائعة»⁽¹⁾ في عيد الميلاد ذاك. كنت لا أزال أشغل الغرفة ذاتها في الطابق الأخير من المنزل. شبّاكها يطلّ على الطريق. أذكر أنّه في كلّ يوم أحد عند منتصف الليل، كان جزائريّ يعبر الطريق صعوداً نحو مجمع الأكواخ، وهو يخاطب نفسه بهدوء. وهذا المساء، بعد مضيّ أربعين عاماً، توحى لي سان لو بالشبّاك المضاء في «الستارة القرمزية»⁽²⁾ - لكأنني نسيت أن أطفئ الضوء في غرفتي القديمة أو في شبّابي. باربيه دورفتي ولد في الجوار. زرت منزله.

(1) *Illusions perdues* رواية للكاتب الفرنسي أونوريه دو بالزاك.

(2) *Le Rideau cramoisi* أولى قصص مجموعة *Les Diaboliques* للكاتب

والشاعر الفرنسي جول باربيه دورفتي (1808-1889).

1963. 1964. السنوات تختلط. أيام بطيئة، أيام مطرة...
غير أنني كنت أدخل أحياناً حالة من الخدر أفلت فيها من
تلك الكآبة، مزيج من السكر والنعاس، كما حين نمشي في
الشوارع في الربيع، بعد ليلة بلا نوم.

1964. التقيت بفتاة تدعى كاترين في مقهى على جادة
لا غار، تشبه آرليتي⁽¹⁾ برقتها ولكنها الباريسية. أذكر ربيع
ذلك العام. أغصان أشجار الكستناء على طول خط المترو
الجوي. جادة لا غار حيث لم يكونوا بعد هدموا المنازل
الخفيضة.

كانت والدتي تلعب في مسرح لامبيغو دوراً صغيراً في
مسرحية لفرنسوا بييدو: «كيف حال العالم سيدي؟ إنه

(1) ممثلة فرنسية شهيرة.

يدور سيّدي»⁽¹⁾... كانت أورشولا كوبلر، زوجة بوريس فيان⁽²⁾، من فريق الممثلين أيضاً. كانت تقود سياراً مورغان حمراء. ذهبتُ في بعض الأحيان إلى منزلها وصاديقها هوت ديديه، في حيّ فيرون. روت لي كيف كانت ترقص رقصة الدبّ مع بوريس فيان. تأثرت لرؤية مجموعة بوريس فيان الضخمة من الأسطوانات.

لجأت في يوليو إلى سان لو. ما بعد ظهائر فارغة. كنت أتردد إلى المكتبة العامة والتقيت بامرأة شقراء. كانت تقضي العطلة في فيلا على مرتفعات تروفيل، مع أطفال وكلاب. كانت تلميذة داخلية في الرابعة عشرة من عمرها، أثناء الاحتلال، في دار التربية الخاصة بعائلات حائزي وسام جوقة الشرف في سان دوني. تلميذة المدارس الداخلية القديمة. كتبت لي والدتي: «إن كنت مرتاحاً هناك، فمن الأنسب أن تبقى لأطول وقت ممكن. أنا لا أنفق شيئاً، وهكذا سيكون بوسعي إرسال ما تبقى من الأموال التي

(1) *Comment va le monde, mōssieu? Il tourne mōssieu*

(2) Boris Vian (1920–1959) كاتب ومؤلف موسيقيّ وعازف جاز، من أبرز وجوه فرنسا في فترة ما بعد الحرب، ترك ميسمه الفريد في الحياة الثقافية والفنية الفرنسية.

أدين بها لغاليري لافايت».

رسالة جديدة من والدي في سبتمبر في سان لو: «لا أعتقد أننا سنحظى بالتدفئة هذا الشتاء، لكننا سنتدبّر أمرنا. أطلب منك إذاً بنيّ أن ترسل لي كلّ ما تبقى لديك من مال». كنت في تلك الفترة أكسب عيشي نوعاً ما من خلال بيع بعض الكتب. وفي رسالة أخرى، قليل من الأمل: «الشتاء الآتي سيكون بالتأكيد أقلّ قسوة من الذي عرفناه...».

تلقيت اتّصلاً هاتفياً من والدي. سجّلني من غير أن يسألني رأيي في القسم التحضيريّ للدراسات الأدبيّة العليا في ثانويّة ميشال مونتاني في بوردو. ادّعى أنّ لديه صلاحية «الإشراف على دراستي». حدّد لي موعداً لليوم التالي في مقهى محطة كون للقطارات. صعدنا في أوّل قطار إلى باريس. في محطة سان لازار، كانت ميلين دومونجو الزائفة في انتظارنا وقادت بنا السيّارة إلى محطة اوسترليتز. أدركتُ أنّها هي التي فرضت إقصائي بعيداً عن باريس. طلب منّي والدي أن أقدم لميلين دومونجو الزائفة بمثابة عربون مصالحة خاتماً من الجَمْشْت كانت صديقتي

«تلميذة المدارس الداخلية القديمة» قدّمته لي ذكرى منها.
رفضت تقديم ذلك الخاتم.

في محطة أوسترليتز، سعدنا أنا ووالدي في القطار
المتوجّه إلى بوردو. لم أكن أحمل أيّ أمتعة، وكأنّها عمليّة
خطف. قبلت بالرحيل معه على أمل أن أتمكّن من مجادلته
بالمنطق: كانت هذه أوّل مرّة منذ سنتين نقضي فيها معاً
وقتاً أطول من تلك اللقاءات على عجلٍ في المقاهي.

وصلنا إلى بوردو في المساء. استأجر والدي غرفة لكلينا
في فندق سبلانديد. في الأيام التالية، قمنا بجولة على
متاجر شارع سانت كاترين لشراء مستلزماتي للمدرسة
الداخلية، التي سلّم مدير ثانوية ميشال مونتاني لائحة بها
إلى والدي. حاولت إقناعه بأنّ كلّ ذلك غير مجدٍ، غير أنّه
ظلّ متشبّثاً بقراره.

ذات مساء، أمام مسرح «غران تياتر» في بوردو،
انطلقت مهرولاً للإفلات منه. ثمّ أشفقت عليه. حاولت
مجدّداً إقناعه بالمنطق. لماذا يسعى على الدوام للتخلّص
منّي؟ أليس من الأسهل أن أبقى في باريس؟ لم أعد في
سنّ تسمح بسجني في مدارس داخلية... لم يشأ الأخذ

بأيّ من حججتي. تظاهرت عندها بالإذعان. وكما في الماضي، ذهبنا إلى السينما... في مساء يوم الأحد المحدّد لبدء العام الدراسي، رافقني في سيارّة أجرة إلى ثانويّة ميشال مونتاني. ناولني مائة وخمسين فرنكاً وجعلني أوقع إيصالاً. لماذا؟ انتظر في سيارّة الأجرة حتّى عبرت تحت سقيفة مدخل المدرسة. صعدت إلى المهجع حاملاً حقيبتني. نعتني طلاب داخليّون بـ «المبتدئ»⁽¹⁾ وأرغموني على قراءة نصّ يونانيّ. فقرّرت الهروب. خرجت من اللسيه حاملاً حقيبتني وذهبت لتناول العشاء في مطعم دوبيرن على ممّرات تورني، حيث كان والدي اصطحبني في الأيّام السابقة. ثمّ صعدت في سيارّة أجرة إلى محطة سان جان. ثمّ في قطار ليليّ إلى باريس. لم يبق لي شيء من المائة والخمسين فرنكاً. شعرت بالأسف لعدم تعرّفني أكثر إلى بوردو، مدينة «دروب البحر»⁽²⁾. ولأنّه لم يتسنّ لي

(1) إشارة إلى الـ Bizutage وهو شعيرة دارجة في بعض المدارس والجامعات حيث يتمّ إخضاع طلاب السنة الأولى إلى ما يشبه «امتحانات» قبل دمجهم في المجموعة، وتصل أحياناً إلى حدّ المضايقة والإذلال.

(2) *Les Chemins de la mer* رواية للكاتب فرنسوا مورياك تجري وقائعها في بوردو.

تنشق رائحة الصنوبر وصمغ الأشجار. في اليوم التالي في باريس، التقيت بوالدي في أدراج المبنى. دهش لظهوري من جديد. مرّ وقت طويل بعد ذلك من غير أن يكلم أحدهنا الآخر.

وانقضت الأيام، والأشهر. والفصول. أودّ أحياناً لو أعود في الزمن وأعيش من جديد كلّ تلك السنوات أفضل ممّا عشتها. لكن كيف السبيل إلى ذلك؟

أسير الآن في شارع شامبيونيّه، في تلك الساعة من بعد الظهر حين تسكب الشمس أشعتها مباشرة في العينين. أقضي أيتامي في حيّ مونمارتر، في حالة أقرب إلى أحلام اليقظة. كنت أرتاح هناك أكثر من أيّ مكان آخر. محطة لامارك كولانكور للمetro، مع المصعد ومطعم «سان كريستوبال» في منتصف منحدر الأدراج. مقهى فندق تيراس. لحظات عابرة من السعادة. موعد في الساعة السابعة مساءً في مطعم «أوريف». الدرايزون الثلج في شارع بيرت. وأنفاسي، لاهثة دوماً.

الخميس 8 أبريل 1965، بحسب مفكّرة قديمة، لم نعد أنا ووالدي نملك قرشاً واحداً. فرضت عليّ أن أدقّ باب

والدي لأطالبه بنقود. صعدتُ الأدراج، مرغماً يائساً. كنت أنوي عدم رنّ الجرس، لكنّ والدي كانت تترصدني متوعدةً على بسطة الدرج، والترقب على وجهها، والفاجعة في عينيها، والغضب يغلي في عروقها. رننت الجرس. صفق والدي الباب في وجهي. رننت من جديد. فزعقت ميلين دومونجو الزائفة أتمها سوف تتصل بشرطة النجدة. نزلتُ إلى الطابق الثالث من جديد. حضر الشرطيون لاقتيادي. كان والدي يرافقهم. جعلونا نصعد سويةً في حافلة نقل الموقوفين، أمام أنظار الناظر المدهش. جلسنا على مقعد الحافلة، جنباً إلى جنب. لم يكلمني. كانت هذه أوّل مرّة أصعد في حافلة لنقل الموقوفين، وشاء القدر أن أكون فيها مع والدي. هو عاش هذه التجربة من قبل في فبراير 1942 وخلال شتاء 1943، حين أوقفه مفتشو الشرطة الفرنسيّة للشؤون اليهوديّة ضمن حملة اعتقالات.

سلكت حافلة الموقوفين شارع سان بير، ثمّ جادة سان جرمان. توقفت عند الإشارة الحمراء، أمام مقهى «لي دو ماغو». وجه لي والدي اتهامات أمام مفوض الشرطة. قال إنني «أزعر» وإنني أقصد منزله «لإثارة متاعب». أعلن لي

مفوض الشرطة أنه «في المرة المقبلة» سوف يحتجزني هناك. أحسست بجلاء بأن والدي سيرتاح إن هو تمكن من التخلي عني وتركني في مركز الشرطة ذاك إلى الأبد. عدنا معاً إلى رصيف كونتي. سألته لماذا سمح لميلين دومونجو الزائفة بأن تستدعي شرطة النجدة، ولماذا اتهمني أمام مفوض الشرطة. بقي صامتاً.

في ذلك العام 1965 ذاته - أو 1964-، هدم والدي السلام الداخليّة التي كانت تصل بين الطابقين، وباتت الشقتان مفصولتين نهائياً. حين فتحت الباب ودخلت إلى الحجرة الصغيرة المكسوّة بالأنقاض، وجدت بعض كتب طفولتنا وبطاقات بريدية موجهة إلى شقيقي، كانت بقيت في الطابق الرابع، ممزقة إرباً ومبعثرة بين الحطام. مايو ويونيو. مونارتر، على الدوام. الطقس جميل. جالساً على رصيف مقهى في شارع ليزابيس، في الربيع.

يوليو. في قطار ليلى، واقفاً في الممرّ. فيينا. قضيت بضع ليالٍ في فندق رديء قرب محطة غار دو لويسنت. ثم وجدت ملاذاً في غرفة، خلف كنيسة سان شارل. كنت ألاقى أشخاصاً من كلّ الأصناف في مقهى هافيلكا. هناك

احتفلت معهم ذات مساء ببلوغي العشرين.
نتشمس في حدائق بوتزلاينسدورف، وكذلك في تخشبية
صغيرة في وسط بستان للعامّة من ناحية هايليغنشتات. في
مقهى رابي، قاعة كئيبة قرب شارع غرابن، لم يكن هناك
أحد وكانت تنبعث أغنيات لبياف. وعلى الدوام ذلك
الإحساس الطفيف بالسكر الممزوج بالنعاس في الشوارع
الصيفيّة، كأنّما بعد ليلة بلا نوم.

نذهب أحياناً حتّى الحدود التشيكيّة والمجرية. حقل
شاسع. أبراج مراقبة. إن خطّونا في الحقل، أطلقوا النار
علينا.

غادرتُ فيينا في مطلع سبتمبر. قلّ بعدوبة عند الفراق
«وداعاً»، كما تقول الأغنية. ثمّة جملة لكاتبنا جوزف
روث⁽¹⁾ توحى لي بفيينا التي لم أعد إليها منذ أربعين عاماً.
هل أراها من جديد يوماً؟ «تلك المساءات الخاطفة،
الجفلى، كان يتحمّم الإسراع وتلقّفها قبل أن تزول،
وأكثر ما كنت أحبّه هو مباغتتها في الحدائق العامّة، في

(1) Joseph Roth كاتب وصحافي نمساوي (1894-1939) خرج إلى المنفى
في فرنساع وصول النازيين الى السلطة.

فولكسغارتن، في براتر، التقاط آخر وهج من نورها الأكثر رقّة، داخل مقهى حيث كان لا يزال ينسلّ، رهيفاً خفيفاً، مثل عطر..».

في القطار الليليّ في مقصورة من الدرجة الثانية في محطة غار دو لويس، من فيينا إلى جنيف. وصلت إلى جنيف عند العصر. سعدت في الحافلة إلى آنسي. في آنسي، ليل ومطر غزير. كنت مفلساً تماماً. نزلت في فندق إنكلترا، من غير أن أدري كيف سأدفع بدل الغرفة. تغيّرت عليّ آنسي ولم أعد أعرفها، كانت في تلك الليلة مدينة أشباح تحت المطر. هدموا الفندق القديم والمباني المتداعية في ساحة لا غار. في اليوم التالي، التقيت ببعض الأصدقاء. كان العديدون منهم غادروا في خدمة العلم. بدا لي في المساء أنني لمحتهم يعبرون تحت المطر ببداياتهم العسكريّة. كان لا يزال معي رغم كلّ شيء خمسون فرنكاً. لكنّ بدل الغرفة في فندق إنكلترا مكلف. زرت خلال تلك الأيام القليلة أستاذي السابق في مادّة الأدب، الأب أكامبريه، في مدرسة سان جوزيف في تون. كنت راسلته من فيينا لأسأله إن كان من الممكن أن يعهدوا إليّ بوظيفة ناظر

أو أستاذ مساعد للسنة التالية. أعتقد أنني كنت أسعى للهروب من باريس ومن والديّ المسكينين اللذين لم يقدّما لي أيّ دعم معنويّ وتركاني في مأزق لا مخرج منه. عثرت من جديد على رسالتين من الأب أكامبريه. «أتمنى أن يبدأ هذا العام الدراسيّ بحضورك كأستاذ في المدرسة. كلّمت الأب الرئيس في الأمر. هيئة الأساتذة مكتملة، لكن من الممكن أن يحصل تغيير قبل نهاية شهر آب، وهو ما أتمناه حتّى يصبح في مقدورك الانضمام إلينا». وفي الرسالة الثانية بتاريخ 7 سبتمبر 1965، كتب لي: «إنّ جدول الصفوف الذي عملت على وضعه في الأيام الأخيرة يُظهر بوضوح للأسف أنّ عدد الأساتذة أكثر من كافٍ للعام الدراسي 1965-1966. من المستحيل منحك وظيفة، حتى بنصف دوام..».

لكنّ الحياة كانت تستمرّ من غير أن ندري بوضوح لماذا وُجدنا في ذلك الوقت تحديداً مع أشخاص محدّدين دون سواهم، في ذلك الموقع وليس في أيّ مكان آخر، وإن كان الفيلم نسخة أصليّة أم نسخة مدبلجة. لم يبق منه اليوم في ذاكرتي سوى مشاهد وجيزة. سجّلت في كليّة

الآداب لتمديد تأجيلي الخدمة العسكرية. لم أحضر أيّاً من الصفوف وكنت تلميذاً وهمياً. كان جان نورمان (المعروف باسم جان دوفال) يشغل منذ بضعة أشهر على رصيف كونتي الغرفة الصغيرة حيث كانت في السابق السلام الداخليّة بين الطابقين الثالث والرابع. كان يعمل في وكالة عقاريّة، غير أنّه كان محظوراً عليه الدخول إلى باريس. هذا ما علمت به لاحقاً. تعرّفت والدتي عليه قرابة العام 1955. كان نورمان في السابعة والعشرين، وكان خارجاً من السجن أودع فيه لقضايا سطو. شاءت الصدفة أن يكون نقد بعض عمليّات السطو تلك في سنّ مبكرة جداً مع سوزان بوكورو التي كنّا نسكن أنا وشقيقي عندها في جوي أون جوزاس. عاد بعد ذلك ودخل السجن، إذ كان لا يزال عام 1959 في سجن بواسي المركزيّ. أجرى بعض الأشغال الضروريّة في الشقّة المتداعية، وكنت واثقاً من أنّه كان يمدّ والدتي بالمال. أحبّه كثيراً، نورمان ذاك (المعروف باسم دوفال). لقد ترك بتكتم ذات مساء فوق موقد غرفتي ورقة مائة فرنك، عثرت عليها بعد مغادرته. كان يتنقل في سيّارة جاغوار، وعلمت من الصحف في

العام التالي عند اندلاع قضية بن بركة⁽¹⁾ أنه يُعرف بلقب «الطويل القامة صاحب الجاغوار».

حادثة، قرابة 1965-1966: كانت الساعة العاشرة مساءً، وكنت وحيداً في الشقة. سمعت وقع خطى صاحبة في الطابق العلوي، عند والدي، وضجيج أثاث يُقلب أرضاً وزجاج يتحطم. ثم سكون. فتحت الباب المؤدي إلى الأدراج. رأيت رجلين جسيمين، يظهر من سحتهما أنّهما قاتلان مأجوران أو شرطيان باللباس المدني، ينزلان السلم مسرعين، قادمين من الطابق الرابع. سألتها عما يجري. أشار أحدهما لي بيده ناهياً وقال بجفاء: «عد إلى شقتك إن سمحت». سمعت وقع خطى عند والدي. كان هناك إذاً... ترددت في الاتصال به، لكننا لم نكن تقابلنا منذ رحلتنا إلى بوردو، وكنت واثقاً من أنه سوف يقفل الخطّ. طلبت منه بعد سنتين أن يخبرني بما جرى في تلك الليلة. تظاهر بأنه لا يفهم عما أتكلّم. أعتقد أنه كان

(1) السياسي المغربي المهدي بن بركة، كان من أبرز المعارضين للملك الحسن الثاني، أُخطف في 29 أكتوبر 1965 في باريس، ولم يُعثَر فيما بعد على جثته. وقد عاد موديانو إلى تصوير أجواء خطفه في روايته «عشب الليالي» (2012) *L'herbe des nuits*.

رجلاً من الصنف الذي يمكن أن يجبط عزيمة عشرة
قضاة تحقيق.

في ذلك الخريف من العام 1965، كنت أرتاد مطعماً قريباً
من مسرح لوتيسيا، حين يكون لديّ بضع أوراق مالية
من فئة خمسة فرنكات التي تحمل صورة فيكتور هوغو.
وكنت أبيت في غرفة على جاّدة فيليكس فور، في الدائرة
الخامسة عشرة، حيث كان أحد أصدقائي يودع مجموعة
من أعداد «باري تورف»⁽¹⁾ من السنوات العشر الأخيرة،
يستخدمها لإجراء حسابات إحصائية غامضة يراهن على
أساسها على سباقات الخيل في ميداني أوتوي ولونشان.
سرابات. أذكر أنّني كنت أجد رغم كلّ شيء فسحة من
الأفق في حيّ غرونيل ذلك، تراءى لي فوق الأزقة الضيقة
التي تجري مستقيمة وكأنّها مخطوطة بالمسطرة، وتنفّرج
عند طرفها على نهر السين. أحياناً كنت أستقلّ سيارة
أجرة في وقت متأخر من الليل. كانت التوصيلة تكلف
خمسة فرنكات. غالباً ما كانت الشرطة تقوم بدوريات عند
أطراف الدائرة الخامسة، للكشف على الهويات. زوّرت

(1) Paris Turf صحيفة فرنسية متخصصة في سباقات الخيل.

تاريخ ولادتي على جواز سفري لأبدو بالغاً، فحوّلت
1945 إلى 1943.

كان ريمون كونو⁽¹⁾ يتلطف ويستقبلني يوم السبت.
أحياناً كثيرة، كُنّا نأتي معاً بعيد الظهر من نوتّي إلى الضفّة
اليسرى. كان يكلمني عن نزهة قام بها مع بوريس فيان
حتى طريق مسدود يكاد لا يعرفه أحد، في عمق الدائرة
الثالثة عشرة، بين رصيف لا غار وسكّة أوسترليتز:
طريق لا کروا جاري. كان ينصحني بالذهاب إلى هناك.
قرأت أنّ أسعد لحظات عرفها كونو كانت أثناء تسكّعه
بعد الظهر، لأنّه كان يترتّب عليه كتابة مقالات عن
باريس لصحيفة «لاترانزيجان»⁽²⁾. أتساءل إن كانت تلك
السنوات الميته التي أسترجعها هنا تستحقّ العناء. مثل
كونو، لم أكن حقاً نفسي إلا حين أهيم وحيداً في الشوارع،
بحثاً عن كلاب آنيير⁽³⁾. كان لديّ كلبان في ذلك الحين.

(1) Raymond Queneau (1903-1976) روائي وشاعر فرنسيّ مزج بين
المنطق الرياضيّ والإبداع الأدبي في أعمال فريدة آتسمت بالطرفة
والعمق والاتقاد الذهنيّ. وهو أوّل من نشر كتابات موديانو إذ كان
مسؤولاً أدبياً في منشورات غاليمار.

(2) *L'Intransigeant*

(3) *Les Chiens d'Asnières* قصيدة لريمون كونو يعدّد فيها كلّ ما فقده =

كانا يدعيان جاك وبول. في 1952، في جوي أون جوزاس، كان لدينا أنا وشقيقي كلبة تدعى بيغي، دهستها سيّارة بعد ظهر يوم، في شارع الدكتور كورزين. كونو كان مولعاً بالكلاب.

كلمني عن فيلم من أفلام الغرب الأميركي، تجري فيه معركة شرسة بين هنود وباسكيين. وجود الباسكيين أدهشه كثيراً وأضحكه. اكتشفت في نهاية المطاف اسم الفيلم: «قافلة نحو الشمس»⁽¹⁾. ملخص حبكة الفيلم يذكر بشكل واضح: الهنود ضدّ الباسكيين. بوذي أن أشاهد ذلك الفيلم تكريماً لذكرى كونو، في دار سينما غفلوا عن هدمها، في قعر حيّ منسيّ. ضحكة كونو. ما بين انبجاس نافورة وأزيز خُشِيخْشَة. لكنني لست موهوباً في ابتكار الاستعارات. كانت بكلّ بساطة ضحكة كونو.

1966. ليلة من ليالي يناير، على رصيف كونتي. عاد جان نورمان حوالى الحادية عشرة ليلاً. إنني وحيد معه في

= على مرّ الأيام، والعنوان مستوحى من مدفن للكلاب أقيم عام 1899 في منطقة آنير على أطراف باريس، وكان الأوّل من نوعه.

(1) *Caravane vers le soleil* فيلم أميركي لراسل راوس واسمه الأصلي

.Thunder in the Sun

الشقة. المذيع مشتعل. أُعلن خبر انتحار فيغون⁽¹⁾ في شقة صغيرة في شارع رونود، في حين كان الشرطيون يخلعون باب غرفته. كان أحد الأطراف في قضية بن بركة. امتنع وجه نورمان وأجرى اتصالاً هاتفياً مؤنباً أحداً ما، زاعقاً به. أقفل الخط على وجه السرعة. شرح لي أنه تناول العشاء مع فيغون قبل نحو ساعة، وأن فيغون صديق قديم له، منذ مدرسة سانت بارب. لم يقل لي إنه اعتقل معه في الخمسينيات في سجن بواصي المركزي، وهو ما علمته لاحقاً.

ثم تتعاقب أحداث طفيفة، تمرّ من غير أن تترك فينا أثراً كبيراً. يخيل لنا أنه لا يسعنا الاستمرار في عيش حياتنا الحقيقية، أننا ركّاب انسلّوا خلسة في الرحلة. من تلك الحياة التي عشتها خلسة، تعاودني شذرات. عثرت في عيد الفصح على مقالة في مجلّة، تتحدّث عن جان نورمان وقضية بن بركة. كانت المقالة بعنوان: «ماذا ننتظر لنستجوب ذلك الرجل؟» مع صورة كبيرة لنورمان،

(1) Georges Figon صاحب سوابق شارك في التحضير لخطف المهدي بن بركة عام 1965 في باريس، قُتل بالرصاص في شقته وخلص التحقيق إلى أنه انتحر.

مرفقة بالتعليق التالي: «وجه منحوت بالفأس ومصقول بالمثقاب الكهربائي. اسمه نورمان ويطلق على نفسه اسم دوفال. فيغون كان يدعوه «الطويل القامة صاحب الجاغوار». جورج فيغون الذي كان نورمان، الملقّب دوفال، يعرفه منذ زمن بعيد...».

في فصل الربيع ذاك، كنت أبدأ أحياناً إلى مارجان ل.، في شارع روغار. كانت شقّتها ملتقى لشلّة من الأفراد يهيمون على غير هداية بين سان جرمان دي بريه ومونبرناس وبلجيكا. بعضهم ممّن طاولته موجة المخدرات والعقاقير المهلوسة، كان يحطّ رحاله فيها بين سفرتين إلى إيبيزا. كان من الممكن أيضاً أن نلمح في شارع روغار رجلاً يدعى بيار دوفيلز (أو دوفيلتز)، أشقر في الخامسة والثلاثين من العمر، له شاربان ويرتدي طقوماً من قماش بنقشة أمير ويلز. كان يتكلّم الفرنسيّة بلكنة راقية أجنبيّة، يعرض على طيّة ياقته أوسمة عسكريّة، ويدّعي أنّه كان تلميذاً ضابطاً في كليّة سان ميكسان ومتزوّجاً من «فتاة من آل غينيس»⁽¹⁾. كان يجري اتّصالات هاتفية مع سفارات.

(1) آل غينيس Guinness عائلة إيرلندية مشهورة بصناعة جعة تحمل اسمها.

وغالباً ما كان برفقة رجل له سحنة معتوه يتبعه بإخلاص تام، وكان يتباهى بارتباطه بعلاقة مع إيرانيّة.

ظلال أخرى، بينها رجل يدعى جيرار مارسيانو. وكم من الآخرين الذين نسيتهم ولا بدّ أنّهم قضوا منذ ذلك الحين، ماتوا ميتة عنيفة.

في ذلك الربيع من العام 1966 في باريس، لاحظت تبدّلاً في الجوّ، تغييراً في المناخ سبق أن أحسست به في سنّ الثالثة عشرة عام 1958، ثمّ عند انتهاء حرب الجزائر. لكن هذه المرّة، لم يكن هناك أيّ حدث هامّ في فرنسا، أيّ نقطة تحوّل - أو أنّني نسيته. في مطلق الأحوال، لن يكون بوسعي أن أقول ما الذي كان يجري في العالم في أبريل 1966، وهذا مخزٍ. كنّا خارجين من نفق، لكن أيّ نفق، أجهل ذلك. ونفحة الطراوة تلك، لم نعرفها في الفصول السابقة. أكان ذلك وهم الشبان في سنّ العشرين الذين يظنون في كلّ مرّة أنّ العالم يبدأ معهم؟ بدا لي الهواء أكثر خفّة في ذلك الربيع.

إثر قضية بن بركة، لم يعد جان نورمان يسكن على رصيف كونتي، واختفى بشكل غامض. وقرابة منتصف

يونيو، تم استدعائي إلى مركز شرطة الأخلاق وطلب مني المثول أمام مفتش يدعى لانغليه. استجوبني على مدى ثلاث ساعات ونصف في أحد المكاتب، وسط حركة الشرطيين الآخرين المتواصلة ذهاباً وإياباً، وكان يطبع أجوبتي على الآلة الكاتبة. دهشت كثيراً حين قال إن أحداً بلغ عني بأنني مدمن وبائع مخدرات، وعرض عليّ صورة أنتروبومترية⁽¹⁾ لجيرار مارسيانو الذي التقيت به مرّة أو مرتين في شارع روغار. يبدو أن اسمي كان مدوّنًا في مفكرته. قلت إنني لم أقابله يوماً. طلب مني المفتش أن أكشف له عن ذراعيّ ليتحقّق ممّا إذا كانتا تحملان آثار حقن. هدّدني بمداهمة الغرفة التي كنت مرابضاً فيها، على رصيف كونتي وجادة فيليكس فور، لكن يبدو أنّه لم يكن على علم بوجود شارع روغار، وهو ما أدهشني لأنّ المدعو جيرار مارسيانو كان يتردّد إلى تلك الشقّة. أطلق سراحي شارحاً لي أنّ من المحتمل أن أخضع للاستجواب مرّة أخرى. من المؤسف أنّهم لا يطرحون عليكم أبداً الأسئلة الصائبة.

(1) صورة شخصية من الوجه ومن أحد جانبيه (بروفيل)، تستخدم عادةً في المحاكم وفي الأوراق الثبوتية.

حدّرت مارجان ل. من شرطة الأخلاق ومن جيرار مارسيانو الذي لم يظهر بعدها. أمّا بيار دوفيلز، فقبض عليه في الأيام التالية في متجر للأسحة، وهو يشتري أو يبيع مسدّساً. كان دوفيلز نصّاباً، وقد صدرت بحقه مذكرة توقيف. أنا من جهتي، ارتكبت عملاً سيئاً: سرقت مجموعة ملابس دوفيلز التي بقيت عند مارجان ل.، وكانت تتألّف من عدّة طقوم في غاية الأناقة، وسلبت علبة موسيقيّة قديمة كانت ملكاً للذين استأجرت منهم مارجان ل. الشقّة. تفاهمت مع تاجر سقط متاع قديم في شارع جاردان سان بول وتركت له كلّ ما لديّ لقاء خمسمائة فرنك. روى لي أنّه ينتمي إلى عائلة من تجّار الخردة من كليشي، وأنّه عرف جوانوفيسي⁽¹⁾ جيّداً. وإن كان لديّ أغراض أخرى أريد أن أبيعها، فيكفي أن أتصل به. أعطاني مائة فرنك إضافيّة، وقد وجد على ما يبدو خجلي مؤثراً. في السنة التالية، عوّضت عن ذلك العمل السيئ.

(1) جوزف جوانوفيسي (1905-1965) فرنسي من أصل يهودي روسي كان تاجر خردة معروفاً في كليشي بالمنطقة الباريسية، زوّد السلطات الألمانيّة أثناء الاحتلال بقطع الغيار وقدم في الوقت ذاته أموالاً للمقاومة، عُرف بعلاقاته المتنّبة مع معسكرات متعارضة.

استخدمت أول حقوق مؤلف تقاضيتها لإعادة تسديد ثمن العلبة الموسيقية المسلوقة. ولكنك اشترت بكل سرور بضعة طقوم لدوفيلز، لكن لم تردني بعد ذلك الحين أي أخبار عنه.

لكن صريحين حتى أقصى الحدود: قمنا أنا ووالدي عام 1963 ببيع الطقوم الأربعة شبه الجديدة، والقمصان وأزواج الأحذية الثلاثة مع قوالها الخشبية الفاتحة اللون التي كان روبير فلاي، صديق والدي، تركها في الخزانة. بعناها لبولندي نعرفه، يعمل في سوق البراغيث. روبير فلاي أيضاً كان يرتدي مثل دوفيلز طقوماً من نقشة أمير ويلز، وهو أيضاً اختفى بين ليلة وضحاها. لم يكن لدينا قرش واحد بعد ظهر ذلك اليوم. فقط العملة التي سددها لي البقال في شارع دوفين عن إرجاع زجاجات فارغة. كان ذلك في وقت كان ثمن رغيف الخبز المستطيل فيه أربعة وأربعين سنتياً. فيما بعد، سلبت كتباً عند أفراد أو في مكتبات عامة. بعته لأنه لم يكن لدي نقود. نسخة من الطبعة الأولى من كتاب «من ناحية سوان»⁽¹⁾ الصادر عن

(1) *Du côté de chez Swann* للكاتب الفرنسي مارسيل بروست.

دار غراسيه، وطبعة أصليّة لعمل لآرتو عليها إهداء إلى مالرو، وروايات تحمل إهداءات من مونترلان، ورسائل لسيلين، ونسخة من «لوحة لحرس الملك»⁽¹⁾ إصدار عام 1919، وطبعة سرية لمجموعتي «نساء» و«رجال»⁽²⁾ لفيرلين، وعشرات الكتب من سلسلة «لا بليياد» وكتب الفنّ... واعتباراً من اللحظة التي بدأت فيها الكتابة، لم أعد أرتكب أدنى سرقة. وكان يحدث لوالدي أيضاً، رغم عنجهيتها الاعتيادية، أن تسلب بعض الأغراض «الفاخرة» والمنتجات الجلدية من رفوف «لا بيل جاردينير» أو غيره من المتاجر. ولم تُضبط يوماً متلبسة بالسرقة.

غير أنّ الوقت كان يضغط، صيف 1966 كان يدنو ومعه ما يسمّى بسنّ الرشد. لجأت إلى حيّ جادة كيلرمان، وكنت أتردّد إلى المدينة الجامعية المجاورة. أرتاد حدائقها الواسعة، مطاعمها، المقهى وصالة السينما فيها، وأعاشر سكّانها. أصدقاء مغاربة، جزائريّون، يوغوسلاف،

(1) *Tableau de la maison militaire du roi*

(2) *Hombres و Femmes* مجموعتان شعريتان لبول فيرلين.

كوبيون، مصريون، أتراك...

في يونيو، تصالحنا أنا ووالدي. كنت ألاقه أحياناً كثيرة في ردهة فندق لوتيسيا. أدركت أنه لم يكن صافي النية حيالي. حاول إقناعي بتسييق استحقاق الخدمة العسكرية. قال إنه سيتكفل بنفسه بالتحضير لإلحاقني بثكنة رويي. ادّعت الموافقة للحصول على بعض النقود منه، ما يكفي لقضاء آخر عطلة لي باعتباري «مدنياً». لا يمكن ردّ طلب لعسكريّ مقبل. كان على قناعة بأنني سوف أكون عمّا قريب ملتحقاً بصفوف خدمة العلم. سوف أبلغ الحادية والعشرين، وسيتخلص منّي نهائياً. ناولني ثلاثمائة فرنك، «نفقة الجيب» الوحيدة التي حصلت عليها منه في حياتي. كنت سعيداً بهذه «المكافأة» حتى أنني كنت سأعده بكلّ طيبة خاطر بأن ألتحق بالفيلق الأجنبيّ. رحّت أفكّر في الحتميّة الغامضة التي تدفعه دائماً إلى إبعادي: المدارس، بوردو، مركز الشرطة، الجيش...

الرحيل بأسرع ما يمكن قبل ثكنات الخريف. الأوّل من يونيو في الصباح الباكر، محطة ليون. مقصورة الدرجة الثانية في القطار مكتظة. إنه اليوم الأوّل من العطلة. بقيت

واقفاً في الممرّ في أغلب الوقت. حوالى عشر ساعات للوصول إلى جنوب فرنسا. الحافلة تسلك الطريق المحاذي للساحل. إيسامبر. سانت ماكسيم. انطباع خاطف بالحرية والمغامرة. من بين معالم حياتي، تبقى لفصول الصيف على الدوام مكانتها، رغم أنّها تختلط في نهاية الأمر، ليبقى ظهرها الأبدى.

استأجرت غرفة في ساحة لا غارد فرينيه الصغيرة. هناك، على رصيف المقهى-المطعم، في الظلّ، بدأت كتابة روايتي الأولى، في ما بعد ظهيرة. في الجهة المقابلة، لم يكن مكتب البريد يفتح سوى ساعتين في اليوم في تلك القرية الغارقة في الشمس والسبات. وفي مساء أحد أيام ذلك الصيف، بلغت الحادية والعشرين، وفي اليوم التالي، توجّب عليّ أن أستقلّ القطار من جديد.

في باريس، بقيت مختبئاً. آب. في المساء، أذهب إلى سينما فونتنبولو على جادة إيطاليا، وإلى مطعم «لا كاسكاد» على جادة راي... أعطيت والدي رقماً، غوبلان 71-91. كان يتّصل بي في الساعة التاسعة صباحاً، وكنت أضبط المتبّه ليرنّ، لأنني كنت أنام حتّى الثانية بعد الظهر. كنت أوصل

كتابة روايتي. قابلت والدي مرّة أخيرة في المقهى الذي
يقدم مثلجات، عند زاوية شارع بابيلون وجادة راسباي.
ثمّ حصل تبادل الرسائل التالي بيننا. «ألبير رودولف موديانو،
15 رصيف كونتي، باريس الدائرة السادسة، 3 أغسطس 1966.
عزيزي باتريك، إن أنت قرّرت التصرّف كما يحلو لك
وتجاوز قراراتي، فالوضع سيكون كالتالي: عمرك 21 عاماً،
أنت إذاً بالغ، ولم أعد مسؤولاً عنك. وبالتالي، لن يكون
بوسعك أن تأمل منّي أيّ مساعدة كانت، أو أيّ دعم من أيّ
طبيعة، سواء على الصعيد المادّي أو على الصعيد المعنويّ.
القرارات التي اتخذتها بشأنك بسيطة، إمّا أن تقبلها أو لا،
والأمر لا يقبل النقاش: تلغي إذن تأجيل خدمتك قبل
العاشر من أغسطس حتّى يتمّ تجنيدك في أكتوبر المقبل.
كنا متفقين على الذهاب صباح الأربعاء إلى ثكنة روّتي
لإلغاء تأجيل خدمتك. كان موعدنا الساعة 30, 12 ظهراً،
انتظرتك حتّى الساعة الواحدة والربع، وعملاً بأساليبك
الاعتياديّة، أساليب فتى منافق وعديم التهذيب، لم تحضر
إلى الموعد، ولم تكلف نفسك حتّى عناء الاتصال للاعتذار.
أوكد لك أنّها آخر مرّة أترك لك فيها مجالاً للتعامل معي

بمثل هذه الطريقة الجبّانة. لديك إذاً الخيار، إمّا أن تعيش على هواك وتتخلّى كلياً ونهائياً عن دعمي، أو أن تلتزم بقراراتي. القرار قرارك. وبوسعي أن أوكد لك بثقة تامّة أنّه مهما يكن خيارك، فإنّ الحياة ستعلّمك مرّة جديدة كم كان والدك على حقّ. ألبير موديانو. ملاحظة: أضيف أنّي جمعت أفراد عائلتي خصيصاً وأبلغتهم، وهم يوافقونني الرأي بالكامل». لكن أيّ عائلة؟ أهى العائلة المستأجرة لليلةٍ في «الموعد في سنليس»⁽¹⁾؟

«باريس في 4 أغسطس 1966. سيّدي العزيز، تعرف حتماً أنّه في القرن الماضي، كان (رقباء التجنيد) يجعلون ضحاياهم يشربون حتّى السكر قبل أن يجعلوهم يوقّعون على تجنيدهم. إنّ التسرّع الذي أبديته في تصميمك على جزّي إلى ثكنة روّي يذكّرني بهذه الأساليب. الخدمة العسكريّة تعطيك فرصة ممتازة للتخلّص منّي. (الدعم المعنويّ) الذي وعدتني به الأسبوع الماضي سيتكفّل به العرفاء في الجيش. أمّا (الدعم المادّي)، فلن يكون ضرورياً إذ أنّي سأجد المبيت والمأكل في الثكنة. باختصار، قرّرتُ

(1) *Le Rendez-vous de Senlis* مسرحيّة لجان أنوي.

التصرّف كما يجلولي وتجاهل قراراتك. وضعي إذاً سيكون كالتالي: عمري 21 عاماً، إنني بالغ، ولم تعد مسؤولاً عني. بالتالي، لا يمكن أن آمل منك أيّ مساعدة كانت، أو أيّ دعم من أيّ طبيعة، سواء على الصعيد المادّي أو على الصعيد المعنويّ».

إنّها رسالة أندم اليوم على كتابتها له. لكن ماذا كان بوسعي غير ذلك؟ لم أكن ناقماً عليه، وفي مطلق الأحوال، لم أشعر يوماً بأيّ نقمة عليه. كنت أخشى بكلّ بساطة أن أجد نفسي أسيرٍ ثكنة في الشرق. لو كان عرفني بعد ذلك بعشر سنوات - كما كانت ميراي أورو سوف تقول - لما كانت حصلت أدنى مشكلة بيننا. لكان استمتع بالاستماع إليّ أحدثه في الأدب، ولكنك سألته عن مشاريعه الماليّة والاستثماريّة وعن ماضيه الغامض. وهكذا، في حياة أخرى، نسير شابكين ذراعينا، من غير أن نعود نخفي لقاءاتنا على أحد.

«ألبر رودولف موديانو، 15 رصيف كونتي، باريس الدائرة السادسة، 9 أغسطس 1966. تلقّيت رسالتك بتاريخ 4 آب، الموجهة ليس إلى والدك، بل إلى «سيّدي العزيز» الذي

لا بدّ لي من الإقرار بأنني المعنيّ به. خبثك ومكرك لا حدود لهما. إنّها مسألة بوردو تتكرّر. لم أتخذ قراري بشأن تجنيّدك في خدمة العلم في نوفمبر المقبل بشكل متهور. رأيتُ من الضروريّ لا أن تبدّل أجواءك فحسب، بل أن تجري حياتك في إطار من الانضباط وليس من الجموح والنزوات. الاستخفاف الذي تظهره مُعيب. أخذتُ علماً بقرارك. ألبير موديانو». ولم أره من جديدٍ بعد ذلك اليوم.

الخريف في باريس. واصلت كتابة روايتي، في المساء، في غرفة من أحد مباني المجمّعات الصخمة على جادة كيلرمان، وفي المقهيّن عند طرف شارع الأميرال موشيه. في إحدى الليالي، وجدت نفسي، من غير أن أدري كيف، مع أشخاص آخرين في الضفة الأخرى من السين، عند جورج وكيكي دراغان التي كنت هربتُ من أجلها من المدرسة في سنّ الرابعة عشرة والنصف... في تلك الفترة، كانت تسكن في بروكسل، وكانت والدتي تستضيفها في شقّة رصيف كونتي. باتت منذ ذلك الحين محاطة ببعض كتّاب الخيال العلميّ من سان جرمان دي بريه، وبعض

الفنّانين من حركة «بانيك»⁽¹⁾. لا بدّ أنّهم كانوا يغازلونها، وهي تبادلهم المودّة تحت أنظار زوجها الساكن، جورج داراغان، وهو صناعيٌّ من بروكسل، كان دعامة حقيقةً من دعائم مقهى فلور حيث كان يبقى مسمّراً إلى مقعد منذ الساعة التاسعة وحتى منتصف الليل، ربّما ليعوّض عن كلّ السنوات الضائعة في بلجيكا... أستذكر مع كيكي الماضي وفترة مراهقتي تلك التي باتت بعيدة، فتروي لي أنّ والدي كان حينذاك يصطحبها في المساء إلى مطعم «شارلو ملك المحار»⁽²⁾... تتذكّر والدي بمودّة. كان رجلاً دمثاً، قبل أن يلتقي بميلين دومونجو الزائفة. فيما بعد، أخبرتني ناتالي، مضيقة الطيران التي عرفها عام 1950 أثناء رحلة من باريس إلى برازافيل، أنّه في الأيام العجاف، لم يكن والدي يأخذها لتناول العشاء عند «شارلو ملك المحار» بل عند «روجيه لا فريت»⁽³⁾... اقترحْتُ بخجل على

(1) حركة فنيّة تشكّلت في باريس عام 1962 تستمدّ اسمها من الإله بان في الميثولوجيا الإغريقيّة، ركزت نشاطها على فنّ الأداء الذي يتسم بالفوضوية والسريالية.

(2) Charlot, Roi des Coquillages مطعم في قلب حيّ كليشي في باريس اشتهر بتقديم أطباق المحار وثمار البحر.

(3) Roger la Frite مطعم في باريس معروف بالبطاطس المقلّية التي كان يقدّمها مع جميع أطباقه.

جورج داراغان وكيكي أن أعرض عليهما مخطوطة روايتي
لقراءتها، وكأنا في صالون السيّد والسيدة دو كاتافيه⁽¹⁾.

ربّما كان كلّ هؤلاء الأشخاص الذين عرفتهم على مرّ
الستينيات ولم تسنح لي الفرصة منذ ذلك الحين أن ألقاهم
من جديد، يواصلون العيش في ما يشبه عالماً موازياً، بمأمن
من الزمن، بملامح وجوههم من الماضي. كان هذا الخاطر
يجول في بالي قبل قليل، وأنا أمشي بمحاذاة الشارع المقفر،
تحت الشمس. أنت في باريس، عند قاضي التحقيق، كما
كتب أبولينير في قصيدته⁽²⁾.

والقاضي يعرض عليّ صوراً، وثائق، أدلّة إثبات. ومع
ذلك، تلك ليست حياتي تماماً.

ربيع 1967. عشب المدينة الجامعية. حديقة مونسوري.
عند الظهر، كان عمّال شركة سنيكما يقصدون المقهى، عند
أسفل المبنى. ساحة ليه بوبلييه، بعد ظهر يوم يونيو حين
علمت بأنهم قبلوا كتابي الأوّل. مبنى سنيكما ليلاً، مثل

(1) السيّد والسيدة آرمان دو كاتافيه، كان لديهما صالون أدبيّ وسياسيّ في
أواخر القرن التاسع عشر.

(2) إشارة إلى بيت من قصيدة «منطقة» Zone للشاعر الفرنسي من أصل
إيطالي غيوم أبولينير.

باخرة جانحة في جادة كيلرمان.

مساء أحد أيام يونيو، في مسرح لاتوليه، ساحة دانكور. مسرحية غريبة لأوديرتي: «سقوط كور»⁽¹⁾. كان روجيه يعمل مديراً للمسرح. مساء زفاف روجيه وشانتال، تناولت العشاء معها في الشقة الصغيرة، شقة شخص لم أجد قط اسمه فيما بعد، في ساحة دانكور تلك ذاتها حيث أنوار المصابيح تختلج. ثم غادرا في السيارة إلى ضاحية نائية.

في ذلك المساء، شعرت بنفسي خفيفاً لأول مرة في حياتي. التهديد الذي كان يلقي بظله عليّ طوال تلك السنوات، فيرغمني على البقاء مترصداً دوماً، ذلك التهديد تبدد في هواء باريس. أبحرت قبل أن ينهار الجسر العائم المنخور بالسوس. كان قد آن الأوان.

(1) *Cœur à cuir* مسرحية إذاعية لجاك أوديرتي، مقتبسة من صعود جاك كور وسقوطه، وهو شخصية من القرن الخامس عشر. وفي العنوان تورية، إذ أنّ اسم العلم *Cœur* هو أيضاً اسم عامّ معناه «قلب».

نبذة عن المؤلف:

ولد باتريك موديانو في بلدة بولوني-بيآنكور قرب باريس في 30 يوليو 1945 لأم ممثلة من أصل فلامندي، وأب يهودي فرنسي من أصل إيطالي شكّل غموض سيرته أحد أهم عناصر كتابات ابنه ومصادر إلهامه. برع موديانو منذ رواياته الأولى في تصوير الأفق الاجتماعي والسياسي المأزوم في فرنسا في السنوات التالية للحرب العالمية الثانية، وفي تحويل التجربة التاريخية إلى مأساة وجودية ضاغطة يعيشها أفراد محرومون من الإرث، ويفتقرون إلى أدنى المرتكزات، يحدوهم أمل جارف في تأسيس الذات وتحقيق ما يكفي من الوضوح لإعادة ابتكار الحياة. تُوجّ عمله بجوائز عديدة منها جائزة غونكور للرواية في 1978، وجائزة نوبل للآداب في 2014. له أكثر من ثلاثين رواية ومجموعة قصصية، وتصدر عن مشروع «كلمة» في أبوظبي ترجمة ستّ من رواياته إلى العربية.

نبذة عن المترجمة :

دانيال صالح شاعرة لبنانية بالغة الفرنسية، لها مجموعتان شعريتان بعنوان «حجارة الليل» صدرت في باريس عام 1984، و«الخطوات النائمة» صدرت في بيروت عام 1985. ترجمت في الصحف والدوريات اللبنانية والعربية عشرات القصص القصيرة والقصائد لجاك بريفيروبول إوار وجورج شحاده وتشيزاري بافيزي وهنري ميشو ولوكليزيو وغيرهم، وساهمت في ترجمة أشعار لأنسي الحاج إلى الفرنسية، وأعدت وترجمت بالاشتراك مع شارل شهوان أنطولوجيا للقصة القصيرة بعنوان «ثلاثون قصة من الكوكب». من ترجماتها إلى العربية «منصب شاغر» للبريطانية ج. ك. رولينغ، و«بوتشان» للياباني ناتسومي سوسيكى، و«فيضان ونصوص أخرى» لإميل زولا، والكتابان الأخيران صدرا عن مشروع «كلمة» للترجمة.

سلسلة

أكتب هذه الصفحات كمن يحزر محضراً أو سيرة شخصية، بصفة توثيقية، ربّما لانتهاء من حياة لم تكن تخصني. مجرد شريط من الأحداث والأفعال. ليس لديّ ما أعترف به ولا ما أكشف سرّه، وأنا لا أشعر بأدنى ميل إلى التأمّل في النفس ومراجعة الضمير. بل على العكس، كلّما بقيت الأمور غامضة ومبهمة، ازداد اهتمامي بها. لا بل كنت أجهد في إيجاد سرّ لأشياء خالية من الأسرار. والأحداث التي سأنقلها حتى عامي الحادي والعشرين، عشتها في «عرض خلفي»، تلك الوسيلة التي تقضي بعرض مشاهد على شاشة خلفية فيما يلزم الممثلون أماكنهم في موقع التصوير في الاستديو. وددتُ لو أترجم ذلك الانطباع الذي أحسّ به كثيرون من قبلي: كانت الأحداث كلّها تتعاقب كأنما على شاشة خلفية ولم يكن بوسعي بعدُ أن أعيش حياتي.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال وناشئة



9 789948 174813

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

كلمة
KALIMA

